THE LESSONS OF HISTORY

دروس من التاريخ

ويل وإريل ديورنت

ترجمة: يوسف ربيع

ساحر الكتب

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

دروس من التاريخ

لمزيد من المعلومات عن عصير الكتب www.booksjuice.com

العنوان الأصلي: The lessons of history

طبع بواسطة: SIMON & SCHUSTER

حقوق النشر © 1968 لـ ويل وإيل ديورنت.

وتم تجديدها © 1996 لـ ويل جيمس ديورنت و مونيكا إريل ميهيل.

Copyrights © 1968 by will and Ariel Durent

.copyrights renewed by © 1998 will james durent and monica Ariel mihell

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

حقوق الترجمة © يوسف ربيع

جميع الحقوق محفوظة: لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر

ويل وإيل ديورنت

دروس من التاريخ: فكر / ويل وإيل ديورنت؛ ترجمة يوسف ربيع - القاهرة عصير الكتب للنشر والتوزيع ٢٠٢٠

١٨٦ ص؛ ٢١ سم

I . S . B . N: ٩٧٨ - ٩٧٧ - ٩٢٢ - ٠٧٢ - ٦

رقم الإيداع: ٢٨١٠٣ / ٢٠١٩

الطبعة الأولى: يناير ٢٠٢٠

تنسيق داخلي: سمر محمد

تصميم الغلاف: كريم آدم

مدير الحقوق الأجنبية: محمد صلاح فضل

المدير العام: محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس

00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

ويل وإريل ديورنت

دروس من التاريخ

ترجمة

يوسف ربيع

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

المحتويات

مقدِّمة الكاتب ٩

تساؤلات ١١

التاريخ والأرض ١٧

البيولوجيا والتاريخ ٢٣

الأعراق والتاريخ ٣٥

الشخصيَّات والتاريخ ٤٩

الأخلاق والتاريخ ٥٩

الدين والتاريخ ٧١

الاقتصاد والتاريخ ٨٧

الاشتراكيَّة والتاريخ ١٠١

ما الذي أفشل التجربة؟ ١١١

نظم الحكم والتاريخ ١١٩
التاريخ والحرب ١٤١
النموُّ والاضمحلال ١٥١
هل التقدُّم حقيقيٌّ؟ ١٦٥
هوامش ١٧٩
كتُب ورَد ذكرُها بالهوامِش ١٨٣

مقدِّمة الكاتب

هذه القطعة الخِتاميَّة لا تحتاج إلى الكثير من التقديم، بعد الانتهاء من قصَّة الحضارة حتى ١٧٨٩م، أعدنا قراءة عشر المجلَّدات بهدف نشر نسخة مُنقَّحة تُصحِّح العديد من الأخطاء من سهوٍ، أو سوء سردٍ لحقائق، أو أخطاء في الطباعة. في أثناء هذه العمليَّة سجَّلنا ملاحظات عن الأحداث والتعليقات التي يُمكنها أن توَضِّح الأوضاع الحاليَّة والاحتِمالات المُستقبليَّة وطبيعة الإنسان وسلوك الدول، (الإشارات الموجودة في الكتاب لمجلَّدات مختلفة من القصَّة ليست معروضة لتكون مُستنداتٍ مرجعيَّة، ولكن لتوضيح أمثلة مذكورة، أو كنماذج لها). حاولنا أن نؤجِّل استنتاجاتنا حتَّى أتممنا اطِّلاعنا على الحكاية كلِّها، لكن آراءنا السابقة بلا شكٍّ أثَّرت على اختيارنا على الموادِّ التوضيحيَّة، والنتيجة هي المحاولة التي بين يديك،

وإن كانت تكَرِّر بعض الأفكار التي ذكرناها من قبل أو ذكرها غيرنا؛ فهدفنا ليس الأصالة هنا، وإنَّما الحصر؛ نحن نعرض هنا مسحًا شاملًا للتجربة الإنسانيَّة لا تجلِّيات شخصيَّة.

علينا هنا – كما كان الحال كثيرًا من قبل – أن نشكر بامتنان مُساعدة ومَشورة ابنتنا أثيل.

ويل وإريل ديورنت

تساؤلات

يُواجه المؤرِّخ تحدِّيًا عندما يقترب من الانتهاء من أبحاثه: ما أهمِّيَّة ما قمت به من أبحاث؟ هل كانت فقط للاستمتاع بإعادة سرد ارتقاء الأمم والأفكار وسقوطها، وللاستمتاع بإعادة سرد «قصص حزينة عن موت الملوك»؟ هل تعلَّمت عن الطبيعة البشريَّة أكثر من عامِّيٍّ لم يحاول أن يفتح كتابًا؟ هل استقيت من التاريخ أيَّ إلهامٍ عن حالتنا المُعاصرة، أو إرشاداتٍ لأحكامنا وسياساتنا، أو وسائل للحماية من آثار التغَيُّر وتقَلُّبات الدهر؟ هل وجدت نظامًا أو قوانين في تتابُع أحداث الماضي تُمَكِّنك من التنَبُّؤِ بالحركات القادمة للبشريَّة أو بمَآلات الأمور؟ أم هل يُمكن أن تكون نتيجة هذا كلِّه أنَّه «ليس للتاريخ وجه مُعيَّن يُفهم عليه»[1]. وأنَّ التاريخ لا يُعلِّمنا شيئًا، وأنَّ كلَّ أحداث الماضي ما كانت إلَّا عرضًا مُصغَّرًا

لأخطاء لا بدَّ أن تقع في المستقبل في مراحل أكبر ونطاقات أوسع؟

أحيانًا ينتابنا هذا الشعور، وتُداهم محاولاتِنا الكثير من الشكوك.

حتَّى نضع أرضيَّة في البداية لما نتحَدَّث عنه، هل نعلم حقًّا ماذا مضى؟ ما الأحداث التي وقعت بالفعل؟ أم أنَّ التاريخ عبارة عن مجموعة من «الخرافات» لا يُمكننا الاتِّفاق عليها؟ علمنا عن الأحداث الماضية دائمًا ناقص، وغير دقيق في أغلب الحالات، ومُشوَّش بالأدلَّة المُتضارِبة والمُؤرِّخين المُتحيِّزين، وربَّما يكون مُشوَّهًا - أيضًا - بانحيازاتنا وتعَصُّباتنا الدينيَّة والوطنيَّة.

«مُعظم التاريخ تخمينات، والبقية آراء مُنحازة ومُتحامِلة»[٢]. حتَّى المؤرِّخ الذي يُحاول أن يتجَنَّب المُحاباة لدولته أو عِرقه أو جماعته أو الطبقة التي ينتمي إليها يخون هذه الحياديَّة في اختياره للمصادر وتفاوته في الأوصاف بين الفِرَق، «دائمًا ما يُبسِّط المؤرِّخ الأمور، ويختار على عُجالةٍ مجموعة من الحقائق والوجوه التي يستطيع الإلمام بها من بين حُشود هائلة من الأرواح والأحداث التي لا يُمكنه بتاتًا إدراكها أو

تصَوُّر تعقيداتها المُضنية»[٣]. أضِف إلى هذا أنَّ استنتاجاتنا التي نتوَصَّل إليها عن المستقبل بالنظر في الماضي تُصبح أكثر خُطورة مع تسارع التغيير.

في سنة ١٩٠٩م ذكر تشارلز بيجاي أنَّ «العالم تغَيَّر في الثلاثين سنة الماضية أكثر ممَّا تغَيَّر منذ زمن المسيح»[٤]. وربَّما يُضيف عالمٌ شابٌّ في الفيزياء أنَّ مجاله تغَيَّر منذ عام ١٩٠٩م إلى يومنا هذا أكثر ممَّا تغَيَّر في التاريخ المُسجَّل كلِّه. كل عام – وأحيانًا في أوقات الحروب كل شهر – هناك اختراع جديد، أو طريقة جديدة، أو موقف جديد يدعو إلى تغيير طارئٍ على الأفكار والسُّلوكيَّات، كما قد يتسَرَّب – أيضًا – بعض العشوائيَّة – أو ربَّما الحريَّة – لسلوك الأشياء والبشر.

لم نعُد واثقين من علمنا أن الذرَّات – ناهيكَ عن الكائنات الحيَّة – ستستجيب في المستقبل كما استجابت في الماضي، فالإلكترونات – كما يصف كوبر إلهه – تتحرَّك بطرق غامضة للقيام بخدعها، وبعض الخروج عن النَّمَط أو عن المألوف قد يزعج بعض المعادلات القوميَّة، كما كان الحال عندما شرب الإسكندر الخمر حتى مات وترك إمبراطوريَّته الجديدة تنهار، أو كما كان الحال عندما تمَّ إنقاذ فريدريك الأكبر من كارثة بضمِّه قيصرًا، كان مَفتونًا بالثقافة البروسيَّة.

من الواضح أنَّنا لا يُمكن أن نصف التاريخ على أنَّه علمٌ تجريبيٌّ، حقيقةً لا يُمكننا تصنيفه إلَّا على أنَّه صناعةٌ أو فنٌّ أو فلسفةٌ؛ صناعةٌ بقدر ما فيه من تنقيحٍ للحقائق، وفنٌّ بقدر ما فيه منَ الْتِماسٍ لمعنًى وصورةٍ كاملةٍ من وسط فُتاتٍ عشوائيٍّ مُتناثرٍ، وفلسفةٌ بقدر ما فيه من سعيٍ للفهم والتنوير، «الحاضر هو الماضي مجموعًا لاتِّخاذ القرارات، والماضي هو الحاضر مَبسوطًا لمحاولة الفهم»[٥]. أو على الأقلِّ هذا ما نأمله.

عند دراسة الفلسفة نُحاول فهم الجزء في ضوء الكلِّ، وعند دراسة «فلسفة التاريخ» نُحاول فهم اللَّحظة في ضوء الماضي. في الحالتين نعلم أنَّ هذا ضربٌ من المِثاليَّة؛ لأنَّ الصُّورة الكاملة ليست إلَّا خدعة بصريَّة، وذلك أنَّنا لا نعلم تاريخ البشريَّة كلَّه، ربَّما كان هناك حضارات أقدم من السُّومريِّين أو الفراعِنة؛ لقد بدأنا البحث التَّوَّة.

علينا أن نتعامل بِرِضًا مع الِاحتمالات والعلم غير الكامل، وأن نكون مُستعِدِّين دائمًا لمُراجعة نتائجنا؛ ذلك لأنَّ التاريخ – كما هو الحال في العلم والسياسة – تحكمه النِّسبيَّة، وكلُّ المُعادلات يجب أن تكون دائمًا موضع اختبار.

«التاريخ يبتسم ساخرًا من كلِّ مُحاولات تنميط أو مَنطَقة أحداثه ومَجراه، ويعبث بكلِّ مُحاولاتنا للتعميم ويُحطِّم

قواعدنا، التاريخ بناءٌ باروكي[١]»[٦]. ربَّما في ظلِّ هذه الحدود نستطيع أن نتعَلَّم ما يكفي من التاريخ حتَّى نتحَمَّل الواقع بصبر، ويتقَبَّل بعضنا خرافات بعض؛ لأنَّ الإنسان لحظة ضئيلة في عمر الكون، وزائر عابر لكوكب الأرض، وبرعم لفصيلته، ونسل لسلالته، وتركيب من جسد وطابع وعقل، وفرد في أسرة ومجتمع، ومؤمن بعقيدة ما أو مُتشكِّك فيها، وعنصر في نظام اقتصاديٍّ، وربَّما مُواطن في دولة أو جنديٌّ في جيش.

يُمكننا أن نتساءل عمَّا يُمكن للتاريخ أن يعرضه عن طبيعة البشر وسلوكهم وآفاق مُستقبلهم تحت واحدٍ من هذه العناوين: الفلك، الجيولوجيا، الجغرافيا، الأحياء، علم النفس، علم الأعراق، الأخلاقيَّات، الدِّين، الِاقتصاد، السِّياسة، الحرب. إنَّها مُحاولة مَهزوزة، ووحده أحمقُ الذي يُحاول أن يختصر مئات القرون من تاريخ البشريَّة في مائة صفحة من الِاستنتاجات الرَّعناء، لكن... دعنا نبدأ!

---

[١] الباروك (The Baroque): هي فترة تاريخية في الثقافة الغربية نشأت في القرن السابع عشر، تتسم بأسلوب جديد في فهم الفنون البصرية.

الكلمة في الأصل ازدرائية تشير إلى نوع من الفن الغريب.

التاريخ والأرض

دعنا نُعرِّف التاريخ - بازدواجيَّته المُعضلة - على أنَّه أحداث الماضي، أو تسجيلٌ للماضي.

تاريخ البشريَّة مَحصور في نقطة ضيِّقة جدًّا منَ الفضاء، وأوَّل درس يُعلِّمنا إيَّاه التاريخ هو التواضُع، في أيِّ لحظة يُمكن أن يقترب مُذنَّب من الأرض ويُلقي بكوكبنا الصغير ليتراقص بعشوائيَّة في مسارٍ عنيفٍ، أو يخنقنا ويملأ كوكبنا دخانًا أو نارًا. أو يُمكن في أيِّ لحظة أن تقذف شمسنا المبتسمة قطعة مُندفعة في اتِّجاه دورانها - كما يعتقد البعض أن كوكبنا نشأ منذ لحظات من عمر الكون - وتقع علينا هذه القطعة مُنهية كلَّ الآلام والأحزان! علينا أن نتقبَّل كلَّ هذه الِاحتمالات، ونردَّ على الكون بكلمات باسكال[١]: «عندما يُحطِّمه العالم،

[١] بليز باسكال (Blaise Pascal): (١٦٦٢ - ١٦٢٣) فيزيائي ورياضي وفيلسوف فرنسي، له أعمال مهمة ورائدة في جميع هذه المجالات.

سيظل الإنسان أنبل من العالم الذي قتله؛ لأنَّه يعلم بمقتله، وهذا شرفه، ذلك أنَّ الكون لا يعلم شيئًا»[٧].

التاريخ خاضع للجيولوجيا، كل يوم يتعدَّى البحرُ على جزءٍ من الأرض، أو تتعدَّى الأرضُ على جزءٍ من البحر؛ تختفي مدن تحت المياه، وتدقُّ الكنائس الغارقة أجراس الحزن، تُولد الجبال وتهبط على إيقاعات انبثاق الصفائح الأرضيَّة وتآكلها، تتدفَّق الأنهار وتفيض أو تنضب أو تغيِّر مساراتها، تتحوَّل الأودية إلى صحارٍ، وتتحوَّل البرازخ إلى مضائق. في نظر عالِم الجيولوجيا سطح الأرض كلُّه في حالة تغَيُّر مَرِنٍ، والإنسان يتحَرَّك فوقه في غير أمانٍ كما كان يتحرك بطرس في أمواج المسيح.

لم يعُدِ الطقس يتحكَّم بنا بالعنف نفسه كما افترض مونتسكيو وباكل[١]، لكنَّه يرسم لنا حدودًا لا نتعَدَّاها. إبداع الإنسان يستطيع في بعض الأحيان أن يتخطَّى الصُّعوبات الجيولوجيَّة، يستطيع أن يستصلح الصحراء أو يُكيِّف أجواءها، يستطيع أن يمَهِّد سطوح الجبال أو أن يعيش على قِمَمِها، وأن

[١] شارل مونتسيكو (Charles Montesquieu): (١٦٨٩ - ١٧٥٥) فيلسوف فرنسي كتب في فلسفة التاريخ.

هنري باكل (Hemry Buckle): (١٨٢١ - ١٨٦٢) هو مؤرخ وعالم اجتماع إنجليزي، انتقد التفسير اللاهوتي للتاريخ، وتبنَّى مذهب الحتميَّة الجغرافية في تفسيراته التاريخية.

يُزوِّد التِّلال بالمصاطب ليعلوها، يستطيع أن يبني مدينة عائمة ليعبر المحيطات، أو طائرًا عِملاقًا ليشُقَّ السماء، لكن مع ذلك كلِّه يُمكن لإعصار أن يدَمِّر في ساعة واحدة مدينةً بُنيت في مائة عامٍ؛ يُمكن لجبل جليديٍّ أن يُغرِق أو يشُقَّ قلعة تطفو فوق الماء ويُغرق معها ألفًا من المُحتفلين!

تُدفن حضارات تحت الرمال فقط لعدم هطول أمطار كافية كما حدث في وسط آسيا، أو تنغمر وسط الغابات إذا هطلت أمطار غزيرة كما حدث في وسط أمريكا. ستنتكس منطقتنا المزدهرة وتعود إلى حالة من البدائية والكسل إذا ارتفعت درجة الحرارة عشرين درجة. في مناخ شبه استوائي، يمكن لأمة من نصف مليون نسمة أن تتكاثر كالنمل، لكن جوها الدافع للكسل قد يجعلها عرضة للاحتلال المتكرر من محاربين من بيئات أخرى أكثر تحفيزًا ودعوة للنشاط. يمكن أن تتمكن أجيالٌ من إرساء سيطرتها على الأرض، لكنها في النهاية محكومةٌ أن تتحولَ إلى حفريات تحت سطحها.

الجيولوجيا نسيج التاريخ، وأمُّه الرَّاعية، ومَوطنه المهذب. أنهارها وبحيراتها وواحاتها ومحيطاتها تقود المُستوطنين إلى ضفافها، ذلك لأنَّ المياه هي حياة المدن والكائنات الحيَّة، وتوفِّر طرقًا رخيصة للمِلاحة والتجارة. كانت مصر «هبة

النيل»، وحضارات العراق بُنِيت جميعًا بين «الرافدين» وبطول مَصبَّاتهما. كانت الهند بنت نهر السنج وبراهمابوترا والغانج، والصين تدين بحياتها وأحزانها - أيضًا - لأنهارها العظيمة التي كانت - كما نفعل نحن أيضًا - تخرج من مجاريها، وتُخصِّب المناطق المحيطة بفيضاناتها، وزخرف الإيطاليُّون وادي التبرو والأرنو والبو. نَمَتْ أستراليا بطول نهر الدانوب، وألمانيا بطول نهر الإلبي والراين، وفرنسا بطول نهر رون ولوار وسين، أما بالميرا وبيترا فترعرعتا في واحات في الصحراء.

بدأ الإغريق يُنشئون مُستعمرات بطول البحر المتوسِّط عندما زاد عددهم عنِ احتمال حدودهم («كضفادع حول مُستنقع» كما قال أفلاطون[٨])، وبدول النهر الأسود لألفي عام منذ معركة سالاميس (٤٨٠ قبل الميلاد) وحتى هزيمة الأرمادا الإسبانية (١٥٨٨م)، كانت الشواطئ الشماليَّة والجنوبيَّة للبحر المتوسِّط تُمثِّل مساحة تنافُسٍ للرجل الأبيض وتحت هَيمنته. لكنَّ رحلات كولمبوس وفاسكو دا جاما في عام ١٤٩٢م وما تلاها دعتِ الإنسان لتخطِّي المحيطات، وأصبحت سيادة الرجل الأبيض على منطقة البحر المتوسط مُهدَّدة، منذ ذلك الحين... انحدرت كلٌّ من جونة وبيزا وفلورنس وفينيس، وبدأت شمس النَّهضة في الأفول، بدأت شعوب المحيط

الأطلسي في الصعود، وفي النهاية نشروا سلطانهم على العالم، «الإمبراطوريَّة تأخذ الطريق غربًا» كتب جورج بيركلي[١] نحو سنة ١٧٣٠م، هل ستستكمل طريقها عبر المحيط الهادي مُصدِّرةً التقنيات الصناعيَّة والتجاريَّة الأوروبيَّة والأمريكيَّة إلى الصين كما فعلت مع اليابان؟ هل ستجلب خُصوبة الشرق واستعمالها لأحدث التقنيات الغربيَّة نهاية واضمحلال الحضارة الغربيَّة؟

تطوُّر الطائرات سيُغيِّر خارطة الحضارة مرَّة أخرى، ستتراجع خطوط التجارة البحريَّة والنهريَّة أكثر فأكثر، سيتمُّ نقل البشر والبضائع بشكل مباشر أكثر إلى وجهاتهم، ستخسر دول كفرنسا وإنجلترا ميزتها التجاريَّة التي كانت تتمَتَّع بها من طول سواحلها البحريَّة وحسن مَرافئها، بينما ستتخطَّى دول مثل روسيا والصين والبرازيل – التي كانت تُعاني من ضخامة مساحة اليابس من أرضها مُقارنةً بسواحلها –... ستتخطَّى جزءًا من هذه العَقبة بالمِلاحة الجوِّيَّة. ستتحصَّل المدن الساحليَّة على ثروات أقلَّ من نقل البضائع من وإلى السُّفن

[١]جورج بيركلي (George Berkeley): (١٦٨٥ – ١٧٥٣) فيلسوف بريطاني - إيرلندي من أهم مساندي الرؤية الجوهرية، التي تدعى أنَّه لا يُوجد شيء اسمه مادَّة على الإطلاق، وما يعتبره البشر عالمهم المادِّي لا يعدو أن يكون مجرَّد فكرة في العقل بفعل الإدراك، وبغياب الإدراك تغيب المادة.

والقِطارات، عندما تحلُّ المِلاحة الجوِّيَّة في النقل والحروب محلَّ المِلاحة البحريَّة سنكون قد رأينا واحدة من الثورات الأساسيَّة في التاريخ.

يضعُف تأثير العوامل الجغرافيَّة كلَّما تطوَّرت التكنولوجيا، تضاريس وصفات منطقةٍ ما قد تجعلها مناسبة للزراعة أو التعدين أو التجارة، لكنَّ خيال القادة ومُبادراتهم والجهد الدَّؤوب الذي يبذله أتباعهم هي العوامل الوحيدة القادرة على تحويل الإمكانيَّة إلى حقيقة. ومجموعة مُشابهة من العوامل (كما في إسرائيل اليوم) هي وحدها التي يُمكنها أن تُقيم حضارة في مُواجهة الآلاف من العوامل والمَصاعب الطبيعيَّة والبشريَّة.

البشر لا الأرض همُ الذين يخلقون الحضارة.

البيولوجيا والتاريخ

التاريخ جانب من علوم الأحياء، حياة الإنسان جانب من تنوع الكائنات الحيَّة على الأرض وفي البحار.

أحيانًا عند المشي وحيدًا في الغابة في يوم من الأيَّام الصيفيَّة، نسمع أو نرى حركة المئات من الأنواع تطير أو تزحف أو تقفز أو تتسَلَّق أو تدفن شيئًا ما، تنطلق الحيوانات فزِعةً مُسرعةً بعيدًا عند قُدومنا، تنتشر الطيور في السماء، وتنحَسِر الأسماك في الجداول. فجأةً، نُلاحظ لأيِّ قلَّة شرِسة وخطيرة ننتمي نحن على هذا الكوكب المُحايد، ونشعر للحظات – كما تشعر الكائنات المُتنوِّعة الأصيلة في هذا المكان بالطبع – أنَّنا مُتدَخِّلون عابرون في مَسكنهم الطبيعيِّ، بذلك تقع كلُّ تسجيلات وإنجازات الإنسان في تواضُع ضمن تاريخ وفهم الحياة على تنوُّعها. كلُّ صراعاتنا الاقتصاديَّة، وكلُّ نِزاعاتنا

للتزاوُج، وكلُّ جوعنا وحبِّنا وحزننا وحربنا... يُشبهون جميعًا البحث والتزاوُج والسعي والمُعاناة التي تختبئ تحت هذه الأشجار الساقطة أو أوراقها، أو في المياه، أو على الأغصان.

لذلك، فقوانين البيولوجيا هي الدروس الرئيسة للتاريخ. نحن خاضعون لعمليَّة التطوُّر ومُحاولاتها، خاضعون للصراع من أجل البقاء ولصلاحية قانون البقاء للأصلح، وإذا بدا لنا أنَّ بعضنا يُمكنه الهروب من صراع مُحاولات التطوُّر؛ فذلك لأنَّ جماعاتنا التي ننتمي إليها تحمينا، لكنَّ هذه الجماعة ذاتها لا بدَّ لها أن تستوفي مُتطلَّبات البقاء.

لذا، فالدرس البيولوجي الأوَّل الذي نتعَلَّمه من التاريخ أنَّ الحياة مُنافسة... المُنافسة ليست فقط مَقصورة على الحياة التجاريَّة، إنَّما هي تجارة الحياة؛ مُسالمة هي إذا توفَّر الغذاء، وعنيفة عندما تزيد الأفواه عن المُتوَفِّر من الطعام. الحيوانات تأكل بعضها بعضًا دون أن تؤنِّبها ضمائرها. أمَّا الرجال المُتحضِّرون فيستهلك بعضهم بعضًا من خلال عمليَّات قانونيَّة. التعاون بين أفراد المجتمع حقيقيٌّ ويزداد بتطوُّر المجتمع، لكن في الغالب لأنَّه أداة وصورة للتنافس؛ نتعاون في مجموعتنا – عائلتنا، أو مجتمعنا، أو نادينا، أو كنيستنا، أو حزبنا، أو «عِرقنا»، أو أمَّتنا – حتَّى نُقوِّي مجموعتنا في مُنافستها

للمجموعات الأخرى. المجموعات المُتنافسة لها خصائص الأفراد المُتنافسين: التمَلُّك، وحبُّ القتال، والِانحياز، والِاعتزاز.

إنَّ دولنا – لكونها تَضاعُف لذواتنا – تُمثِّلنا وتُمثِّل هويَّتنا، فهي تكتب طبيعتنا بخطٍّ أعرض، وتقوم بخيرنا وشرنا على نطاق ضخم. نحن مُتمَلِّكون وجَشِعون ومُحبُّون للقتال؛ لأن دماءنا تتذكَّر الآلاف من السنين التي اضطر خلالها أسلافنا أن يُطاردوا، ويُقاتلوا، ويقتلوا من أجل البقاء، وكان عليهم أن يأكلوا مِلْءَ بطونهم خوفًا من أنَّهم لن يحصلوا على وجبة شبيهة قريبًا! الحروب طريقة الشعوب في الأكل، إنَّها تُعزِّز التعاون؛ لأنَّها الصورة القُصوى للمُنافسة. وحتَّى تُصبح دولنا أفرادًا في مجموعات كبيرة تستطيع حماية نفسها بشكل فعَّالٍ، ستظلُّ تتصَرَّف كأفرادٍ وعائلاتٍ في مرحلة الصيد.

الدرس البيولوجي الثاني للتاريخ هو أنَّ الحياة انتقاء... في المُنافسة على الطعام أو التزاوُج أو السُّلطة بعض الكائنات الحيَّة تنجح وبعضها يفشل، في الصِّراع من أجل البقاء، بعض الكائنات أقدَر من غيرها على تخَطِّي اختبارات البقاء؛ لأنَّ الطبيعة (المقصود هنا هو الواقع كلُّه وعمليَّاته) لم تقرأ بعناية كافية إعلانَ الِاستقلال الأمريكيِّ أو إعلان حقوق الإنسان

الفرنسيِّ الثوريِّ[١]، فنحن جميعًا لا نُولد أحرارًا ولا مُتساوين! مَحكومون بموروثنا الجسديِّ والنَّفسيِّ، ومَحكومون بعادات وتقاليد جماعتنا، مُتفاوتون بشِدَّة في ما وُهِبْنا من صحَّة وقوَّة جسديَّة، وفي قدراتنا الذِّهنِيَّة وصِفاتنا الشخصيَّة. الطبيعة تُحبُّ الِاختلافات لكونها المادَّة الضروريَّة لِلانتقاء والتطوُّر؛ التوائم المُتطابقة يختلفون في مئات الأوجه، ولا تُوجد حبَّتا بازِلَّاء مُتطابقتين.

ليس التفاوُت طبيعيًّا وفطريًّا فحسب، إنَّه - أيضًا - ينمو مع زيادة تعقيد الحضارات. التفاوُتات المَوروثة تُولِّد تفاوُتاتٍ اجتماعيَّةً ومُصطنعة، كلُّ اختراع أوِ اكتشاف يصنعه أو يستولي عليه الفرد الِاستثنائيُّ، وبذلك فهو يزيد القويَّ قوةً والضعيف ضعفًا. إنَّ التطوُّر الِاقتصاديَّ يُنتج تخصُّص الوظائف ويُسهم في تفاوت القدرات، ويجعل قيمة الناس غير مُتساوية لدى مُجتمعاتهم. لو عرفنا إخواننا الرجال عن كثب لاستطعنا أن نختار منهم ثلاثين بالمائة قدراتهم مُجتمعةً تُعادِل قدرة سائر

[١] إعلان الاستقلال الأمريكي (United States Declaration of Independence): هو وثيقة تبنَّاها الكونغرس القاري في ١٧٧٦، وهو مكتوب بشكل رئيس بواسطة توماس جفرسون.

أما إعلان حقوق الإنسان والمواطن (La Déclaration des droits de l'Homme et du citoyen): فهو الإعلان الذي أصدرته الجمعيَّة التأسيسيَّة الوطنيَّة في ١٧٨٩، وهو مُتأثّر بفكر التنوير ونظريَّات العقد الاجتماعي والحقوق الطبيعيَّة التي قال بها مُفكِّرو تلك الحِقبة.

وكلاهما ينصُّ أنَّ الناس يُولدون أحرارًا ومُتساوين.

الرجال. الحياة والتاريخ يفعلان ذلك بالضبط، بظلم بالغ مُشابِهٍ للذي يُمارسه إله كالفن[١].

تَسْخر الطبيعة منَ اجتماع الحرِّيَّة والمُساواة في اليوتوبيا التي نحاول بناءها؛ لأنَّ الحرِّيَّة والمُساواة حتمًا ودائمًا عدوَّان لَدودان، متى عمَّ أحدهما انحَسَر الآخر. اترك النَّاس أحرارًا، وستتضاعف تفاوُتاتهمُ الطبيعيَّة هندسيًّا[٢] تقريبًا، كما حدث في إنجلترا وأمريكا في القرن التاسع عشر في ظلِّ النِّظام الاقتصاديِّ القائم على عدم التدَخُّل[٣]. لتحقيق السيطرة على نمُوِّ التفاوُت بين الأفراد، يجب التضحية بالحرِّيَّة كما حدث في روسيا بعد ١٩١٧م. حتى عندما يتمُّ كبْت التفاوُت فإنَّه ينمو. وحدهمُ الرجال الذين يمتلكون قدرات اقتصاديَّة دون المُتوسِّطة يرغبون في المُساواة، أمَّا أولئك المُدرِكون لتفَوُّق قُدراتهم يرغبون في الحرِّيَّة، وفي نهاية المَطاف يكون للقُدرات المُتفوِّقة طريقها. إنَّ يوتوبيا المُساواة مَحكوم عليها بيولوجيًّا بالفناء، وأكثر ما يُمكن أن يطمح إليه الفيلسوف الحليم هو

---

[١] جون كالفن (Jean Calvin): (١٥٠٩ - ١٥٦٤)، مصلح ديني ولاهوتي فرنسي، مُؤسِّس المذهب الكالفيني الذي ينصُّ على الجبريَّة وأبديَّة العذاب.

[٢] أي تتزايد بالضرب في عدد ثابت كلَّ مرَّة للزيادة.

[٣] مبدأ عدم التدخل (Laissez-faire): هو مبدأ رأسماليٌّ تدعمه الليبراليَّة الاقتصاديَّة، يُشير إلى ترك الحكومة التجارة دون التدَخُّل فيها.

مُساواة تقريبيَّة أمام العدالة القانونيَّة وفي الفُرَص التعليميَّة. المجتمع الذي يُمكن فيه لكلِّ القدرات أن تنمو وتُمارس، سيكون لديه بذلك مِيزة تُساعده على البقاء في المُنافسة مع غيره، هذه المُنافسة تتزايد كلَّما صغُرتِ المسافات بين الدول؛ لأنَّ ذلك يزيد من حِدَّة المُواجَهة.

الدرس الثالث من الدروس البيولوجية للتاريخ هو أنَّ الحياة يجب أن تتكاثر... الطبيعة لا تعبأ بالكائنات أو التنوُّعات أو المجموعات التي لا يُمكنها أن تتكاثر بوَفْرة. الطبيعة مُولَعة بالعدد كمُقوِّم يسبق انتقاء الخصائص من بين هذه الأعداد. الطبيعة تُحبُّ الحاويات الضخمة، وتستمتع بمُشاهدة الصِّراع بين الكائنات تختار أفضلَها للبقاء؛ وتكون بالتأكيد سعيدة في مُراقبتها سباق آلافٍ من الحيوانات المَنوِيَّة صُعودًا إلى بُويْضة واحدة لتخصيبها!

تهتمُّ الطبيعة بالجنس ككلٍّ أكثر من اهتمامها بأفراده بأعيُنهم، ولا تكترِث كثيرًا بالفُروق بين الشعوب المُتحَضِّرة أو الهَمجيَّة، لا تكترِث الطبيعة بأنَّ ارتفاع عدد المواليد في العادة يُصاحبه تدنٍّ في المستوى الحضاريِّ والثقافيِّ، وأنَّ العكس – أيضًا – صحيح، والطبيعة (هنا المقصود بها الطبيعة المُتمَثِّلة في عمليَّة التكاثر والتنوُّع والمُنافسة والِانتقاء والبقاء) لا ترى في

قلَّة المواليد إلَّا أنَّ صاحبها يجب أن يُؤدَّب من قِبَل ذلك الأكثر فُحولة وخُصوبة. بلاد الغال[١] نجت من الألمان باستعانتها بفيالق الرومان أيَّام القيصر، وبمُساعدة بريطانيا وأمريكا في وقتنا الحالي، عندما سقطت روما سارع الفرنجة[٢] إلى بلاد الغال من ألمانيا وحوَّلوها إلى ما نعرفه الآن بفرنسا. لو أنَّ بريطانيا وأمريكا مَكتوب لهما أن تسقطا، ففرنسا التي لم يتغيَّر عدد سكانها خلال القرن التاسع عشر تقريبًا يُمكن أن تُحتلَّ مُجدَّدًا.

إذا تزايد عدد السُّلالة البشريَّة حتَّى يفيض عن الطعام المُتاح، فللطبيعة طرق ثلاث في استرجاع التوازُن: المَجاعات، والأوبئة، والحروب. في كتابه الشهير بعنوان «مقالة عن مبدأ السُّكَّان» (١٧٩٨م)[٣] يوَضِّح توماس مالتوس[٤] أنَّه في غياب

---

[١] الغال (Gaule): هو الاسم الذي أطلقه الرومان على المنطقة التي تشمل الآن فرنسا وبلجيكا وأجزاء من ألمانيا.

[٢]الفرنجة (Franks): مجموعة قبائل جرمانية دخلت مناطق من الإمبراطورية الرُّومانيَّة واستوطنوا المناطق الشماليَّة من بلاد الغال مُكوِّنين فيها إمارة شبه مُستقلَّة، تحوَّلت فيما بعد إلى فرنسا الحاليَّة.

[٣] مقالة عن مبدأ السُّكَّان: يُعتبر من أكثر الأعمال تأثيرًا في عصره، نُشر لأوَّل مرَّة بشكل مَجهول ولكن سرعان ما تمَّ التعَرُّف على المؤلِّف.

[٤] توماس روبرت مالتوس (Thomas Robert Malthus): (١٨٣٤ - ١٧٦٦) باحث سكَّانيٌّ واقتصاديٌّ سياسيٌّ إنجليزيٌّ، مَشهور بنظرِيَّاته المُؤثِّرة حول التكاثر السُّكَّانيِّ، كان والده مالك أراضٍ مُثقَّفًا، وصديقًا شخصيًّا للفيلسوف دافيد هيوم، ومن معارف جان جاك روسو.

هذه الضوابط الدوريَّة سيتخَطَّى عدد المواليد عدد الوفيات بشدَّة إلى حدٍّ يكون معه أيُّ مجهود لزيادة مصادر الطعام لسَدِّ حاجات التضاعُف الهائل في عدد الأفواه مُحاولات في مهَبِّ الريح! وعلى الرغم من كونه رجلَ دين ورجلًا ذا نيَّة طيِّبة، فإنه أشار إلى أنَّ إصدار إعانات ماليَّة أو فتح صناديق لإغاثة للفقراء يُشجِّعهم على الزواج المُبكِّر والإنجاب غير المَحسوب، ممَّا يزيد الأمور سوءًا. في الإصدار الثاني من الكتاب عام (١٨٠٣م) نصح مالتوس باعتزال مُمارسة الجنس إلَّا للإنجاب، ولم يرضَ بأيِّ طرق أخرى لتنظيم النسل، ولكونه غير مُتفائل كثيرًا بقبول مَشورته التصحيحيَّة فقد توَقَّع أنَّ التوازن بين عدد الأفواه والكمِّيَّات المُتاحة من الغذاء سيظلُّ يُحفظ في المستقبل بالمَجاعات والأوبئة والحروب كما كان في الماضي.

أسهم تقدُّم الأدوات الزراعيَّة وطرق تنظيم النسل في القرن التاسع عشر بشكل كبير في تدمير أفكار مالتوس، ففي إنجلترا وأمريكا وألمانيا وفرنسا ظلَّت كمِّيَّات الطعام تُواكِب في تقدُّمها زيادة المواليد، وأدَّى ارتفاع مُستوى المعيشة إلى تأخُّر سِنِّ الزواج ونقص عدد أفراد الأسرة. كان تضاعُف المُستهلكين هو على وجهٍ آخر تضاعف في المُنتجين، فأيدٍ جديدة أوجدت

أراضيَ جديدة لإنتاج غذاء أكثر. يبدو أنَّ الصورة الحاليَّة لاستيراد كندا وأمريكا الملايين من الأطنان من القمح لِتتجَنَّب المَجاعات مع تجَنُّبهما الأوبئة تُعطي إجابة حيَّةً لمالتوس. لو أنَّ المعرفة الزراعيَّة الحاليَّة طُبِّقت في جميع أنحاء العالم، يُمكن للكوكب أن يوَفِّر غذاءً لضعف سكانه الحاليِّين.

سيُجيب مالتوس أنَّ هذا الحلَّ هو مُجرَّد تأجيل للكارثة! هناك حدود لخُصوبة التُّربَة؛ كلُّ تقدُّم في التكنولوجيا الزراعيَّة سيُلاشيه زيادة عدد المواليد عن عدد الوفيات عاجلًا أو آجلًا. إلى جانب ذلك يسمح الطِّبُّ والرعاية الصِّحِّيَّة والمُنظَّمات الخيريَّة بزيادة عدد غير المُؤهَّلين للبقاء، ويُقاوِمون الانتقاء الطبيعي، ويسمحون لهم بإنجاب أشباههم. ويردُّ الأمل على هذه الدعاوى بأنَّ: التقدُّم في الصناعة ومُستوى المدن والتعليم ومُستوى المعيشة في الدول التي تهدِّد العالم الآن بخُصوبة أراضيها في الغالب سيكون له تأثير مُماثل هناك في خفض نِسَب المواليد، كما حدث في أوروبا وأمريكا الشماليَّة. ولكي نصل إلى التوازن بين مُعدَّلات الإنتاج وزيادة السُّكَّان، فستكون مُهِمَّة البشريَّة كلِّها أن تنشر الوعي الكافي وطرق تنظيم النسل، وفي الوضع المثاليِّ يجب أن يكون الإنجاب امتيازًا توَفِّره الصِّحَّة، لا ناتجًا جانبيًّا للإثارة الجنسيَّة.

هل هناك دليل على أنَّ تنظيم النسل مُخلٌّ بالسُّلالة... بمعنى أنَّه يخفض من المستوى الذِّهنيِّ للأمَّة التي تمارسه؟ منَ المُفترَض أنَّ أذكياء المجتمع يُمارسونه أكثر من البُسطاء، وأنَّه من الواضح أنَّ كلَّ جهود المُعلِّمين تُلاشيها خُصوبة الفئة الأقلِّ وعيًا من كلِّ جيل، لكنَّ مُعظم ما نُسمِّيه ذكاءً هو نتاج التعليم والفرص والخبرات التي يُحصِّلها الأفراد، وأنَّه لا يُوجد دليل على أنَّ هذه المُكتسبات الذِّهنيَّة تُتوارث من خلال الجينات، حتَّى أبناء الحاصلين على الدكتوراه عليهم أن يتعلَّموا ويمُرُّوا بنوبات من الأخطاء والخضوع للمُسلَّمات والتيَّارات الفكريَّة. ولا يُمكننا أن نحكم على كمِّ الإمكانيَّات أو العبقريَّة التي تختبئ في كروموزومات الفقير الذي لم تتوَفَّر له الكثيرُ من الفُرَص، يُمكن أن يكون للصِّحَّة الجسديَّة الأولوِيَّةُ العليا بيولوجيًّا عند الولادة على الأصالة الذِّهنيَّة؛ نيتشه كان يعتقد أنَّ أفضل الدِّماء في ألمانيا تجري في عروق الفلَّاحين، وأنَّ الفلاسفة ليسوا الأنسب لاستكمال إنتاج السُّلالة!

لعِبَت الحدود العائليَّة دورًا مهمًّا في تاريخ اليونان والرُّومان، من المُمْتع أن ترى يوليوس قيصر يُقدِّم العطايا والمِنَح للأسر التي يكثر عدد أبنائها، ويمنع النِّساء اللَّائي

لم يلدن بعد من ارتداء الحُليِّ أو ركوب المَحافِّ[١]. وجدَّد الإمبراطور أغسطس هذا التقليد ثانيةً بعد أربعين عامًا. استمرَّ تنظيم النسل في الِانتشار بين الطبقات العليا، بينما تزايد عدد المُهاجرين من العِرْق الجرمانيِّ الشماليِّ واليونان والعِرْق السامي الشرقيِّ، وسدت زيادتهم تناقُص الطبقات الأخرى وغيَّروا توزيع السُّكَّان في إيطاليا[٩]. من المُحتمَل جدًّا أن يكون هذا التغَيُّر العِرْقيُّ سببًا في تقليل الرَّغبة العامَّة لدى الرُّومان في مُقاومة قُصور الحكومة والهجمات الخارجيَّة.

لقد حدَّ هبوط مُعدَّل المواليد بين الأنجلوسكسونيِّين في الولايات المُتَّحدة من نفوذهم الاقتصاديِّ والسياسيِّ، وتُشير زيادة مُعدَّلات المواليد بين الأُسَر الرُّومانيَّة الكاثوليكيَّة إلى أنَّ الكنيسة الكاثوليكيَّة الرُّومانيَّة ستكون القوَّة المُسيطرة في الحكومة الدوليَّة والمَحلِّيَّة بحلول عام ٢٠٠٠م. وهناك عمليَّة شبيهة تُساعد في استرداد الكاثوليكيَّة في فرنسا وسويسرا وألمانيا، يُمكن لأراضي فولتير وكالفن ولوثر[٢] أن تعود قريبًا إلى أحضان البابويَّة. من الواضح أنَّ مُعدَّلات الولادة يُمكنها أن تفعل ما تفعله الحروب من تحديد مَصير الدِّيانات

[١] عربات كانت تستخدم في العصر الروماني يحملها الرجال، ومفردها محَفَّة.

[٢] جميعهم مُفكِّرون وفلاسفة (من القرن الرابع عشر وحتَّى الثامن عشر) هاجموا الكنيسة الكاثوليكيَّة وأسهموا في ضعف دورها الفكريِّ والسياسيِّ في أوروبا.

والمُعتقدات؛ فكما أنَّ هزيمة المسلمين في معركة تورز[١] حافظت على الإنجيل في فرنسا وإسبانيا من أن يُستبدَل به القرآن، فإنَّ قوَّة تنظيم الكاثوليكيِّين وإرادتهم وأخلاقهم وإخلاصهم وخُصوبتهم يُمكنها أن تهزم مَوجَة الإصلاح البروتستانتيِّ وحركة التنوير الفرنسيِّ. التاريخ أفضل فكاهيٍّ بلا مُنازِع.

[١] معركة تورز (Battle of Tours): تُعرَف - أيضًا - باسم معركة بلاط الشهداء، تُعدُّ المعركة نقطة تحَوُّل حاسمة في صَدِّ توَسُّع الإسلام في أوروبا، ممَّا حفظ المسيحيَّة كديانة لأوروبا.

الأعراق والتاريخ

هناك نحو بليوني شخص مُلوَّن على وجه الكرة الأرضيَّة، ونحو تسعمائة مليون شخص أبيض، ومع ذلك... فالعديد من هؤلاء البيض كانوا سُعداء للغاية عندما نشر جوزيف آرثر دو جوبينو[١] في دراسته في «التفاوت بين الأجناس البشريَّة» (١٨٥٣ - ٥٥) أنَّ الأعراق التي يتكَوَّن منها الجنس البشريُّ مُختلفة اختلافًا مُتأصِّلًا فيها، (كما يختلف الأفراد) في التركيب الفيزيائيِّ والقُدرات الذِّهنيَّة والسِّمات الشَّخصيَّة، وأنَّ جنسًا بعينه «الجنس الآري» بطبيعته مُتفوِّق على باقي الأجناس.

أيُّ شيء نبيل أو مُثمِر من أعمال الإنسان على هذا الكوكب، في العلم والفنِّ والحضارة تُستقى كلُّها من أصل واحد، وهو تطَوُّر البذرة الأولى... كلُّها تنتمي لعائلة واحدة،

[١] آرثر دو جوبين (Gobineau): أديب ودبلوماسيٌّ فرنسيٌّ اشتهر بتعَصُّبه للجنس الآريِّ.

وحدها هي التي أوجدت كلَّ الفروع التي حكمت كلَّ المدن المُتحَضِّرة في العالم... التاريخ يُبيِّن أنَّ كلَّ الحضارات تنبع من الجنس الأبيض، وأنَّ الأجناس الباقية كلَّها لم تكن لِتُوجَد لولا مُساعدته، وأنَّ مُجتمعًا ما يُمكن أن يكون عظيمًا وباهرًا بقدر حفاظه على دمِ المجموعة النبيلة التي أوجدته.[١٠]

لا يُمكن للمُمَيِّزات الزراعيَّة أن تُفسِّر نُشوء الحضارات (هكذا عرض جوبينو حُجَّته)، فعلى البيئة الزراعيَّة نفسها (التربة نفسها التي تخصِّبها الأنهار على سبيل المثال) ترعرعت الحضارة المصريَّة القديمة. بينما لم تزدهر أيُّ حضارة بالقرب من الشرق الأدنى بين الهنود في أمريكا الشماليَّة، على الرغم من أنَّ كلا الشعبين على تربة خصبة مُحاطةٍ بمَجاري أنهار مُذهلة. ولا يُمكن – أيضًا – القول بأن المُؤسَّسات هي التي تصنع الحضارة؛ لأنَّ الحضارات نشأت على أنواع مُختلفة بل ومُتضارِبَة من المُؤسَّسات، فهناك مثلًا الملكيَّة المُطلقة في مصر، والديمقراطيَّة التي كانت في أثينا. صعود الحضارات ونجاحها واضمِحْلالها وسقوطها يعتمد – إذن – على مدى جودة العِرْق الذي يُكوِّنها. وانحلال الحضارة يحدث نتيجة انحدارٍ للنسل عن العِرْق أو السُّلالة الأصليَّة التي حافظت في الماضي على مُستوى تلك الحضارة.

«تنحدر الشعوب – فقط – نتيجة لعمليَّة امتزاج الدماء التي تحدث بينهم»[١١]. يحدث هذا عادة بسبب اختلاط الجنس القوِيِّ في الزواج بالأنساب الأخرى التي هزمها، وهذا يُفسِّر تفوُّق البيض الأمريكيِّين والكنديِّين (الذين لم يتزوجوا بالهنود). وحدهم أولئك الذين أنتجهم هذا الاختلاط المُضعف هم الذين يظنُّون أنَّ «كلَّ الرجال إخوة»[١٢]، كلُّ الرجال والشعوب القوِيَّة مُتنبِّهة لحقيقة هذه الأفضليَّة العِرْقيَّة، ويتجَنَّبون بفطرتهمُ الزواج من خارج مجموعتهم العِرْقيَّة.

في ١٨٩٩م نشر هيوستن ستيوارت تشامبرلين[١] – وهو رجل إنجليزيٌّ اتَّخذ ألمانيا مَوطنًا له، كتابه بالألمانية بعنوان: "Die Grundlagen des neunzehnten Jahrhunderts" (مؤسَّسات القرن التاسع عشر)، والذي ضيَّق العِرْق المُبدع من الآريين إلى الجنس التيوتوني (Teutons) فقط –: «التاريخ الحقيقيُّ بدأ في اللَّحظة التي استولى فيها الألمان بقدرتهم الاِستثنائيَّة على إرث العصور القديمة». صُعق تشامبرلين بوجه دانتي[٢] الذي تظهر عليه ملامح ألمانيَّة واضحة، وظنَّ أنَّه سمع لُكْنَةً

---

[١] هيوستن تشامبرلين (Houston Chamberlain): مؤلِّف إنجليزيٌّ كتب في مجال فلسفة السياسة والعلوم الطبيعيَّة، تمَّ وصفه في قاموس السِّيَر الذاتيَّة الوطنيَّة بأنَّه «الكاتب العِرْقيُّ».

[٢] دانتي أليغييري (Dante Alighieri): (١٢٦٥ – ١٣٢١) هو شاعر إيطاليٌّ من فلورنسا، أعظم أعماله: الكوميديا الإلهيَّة، الذي يُعتبر تحفة من الأدب الإيطاليِّ وواحدة من قِمَم الأدب العالميَّة.

ألمانيَّة واضحة في رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية. وعلى الرغم من أنَّه لم يكن متأكِّدًا أنَّ المسيح كان ألمانيًّا، فإنه كان متأكِّدًا من أنَّ «أيَّ مدَّعٍ أنَّ المسيح كان يهوديًّا إمَّا جاهل أو مُلفِّق»[١٣]. كان الكُتَّاب الألمان أكثر أدبًا من أن يُعارضوا ضيفهم، أقرَّ ترايتشكي[١] وبيرناردي[٢] أنَّ الألمان همُ الأعظم من بين كلِّ الشُّعوب الحديثة؛ فريتشارد فاجنر وضع نظريَّة للموسيقى، وألفريد روزنبيرج جعل الدم والأراضي الألمانيَّة «أسطورة القرن العشرين» المُلهمة؛ وأدولف هتلر على هذا الأساس العرقي نفسه دفع الألمان إلى ذبح شعبٍ والمُضيِّ في غزو أوروبا.

وأمريكيٌّ آخر، ماديسون جرانت، في كتابه The Passing of the Great Race (انحدار السلالة العظيمة) (١٩١٦) جعل الإنجازات الحضاريَّة مُقتصرة على ذلك الفرع من العِرْق الآريِّ الذي سمَّاه العِرْق النورديَّ (Nordics) أو الإسكندنافيَّ، والسكيثيين (Scythians)، والألمان البلطيق، والإنجليز، والأمريكيِّين الأنجلو ساكسونيِّين. مَشحوذةً جيِّدًا بصقيع شتاء

---

[١] تراتيشكي (Treitschke): (١٨٣٤ – ١٨٣٤) مُؤرِّخ وكاتب سياسيٌّ ألمانيٌّ، كان عضوًا في البرلمان الألمانيِّ في فترة الإمبراطوريَّة الألمانيَّة.

[٢] بيرناردي (Friedrich Bernhardi): جنرال بروسي ومؤرِّخ عسكريٌّ، مشهور بكتابه العدائيِّ «ألمانيا والحرب القادمة» الذي نُشر عام ١٩١١.

الشمال، قبيلة أو أخرى من هؤلاء «الوحوش الشقراء» ذوي العيون الزرقاء والشعر الأشقر خرجت مارَّةً بروسيا والبلقان إلى أهل الجنوب الكسالى مُعلنةً بداية التاريخ المُسجَّل. وطبقًا لجرانت فإنَّ عرق «الساكا» (أو السكيثيون؟) غزوا الهند وطوَّروا اللُّغة السِّنسِكْريتيَّة كلغة «هنديَّة أوروبِّيَّة»، وأسَّسوا الطوائف حتى لا يندثر نسلهم عن طريق الزواج المُختلط من السلالة الأصليَّة السمراء. انضمَّ السومريُّون (Cimmerians) إلى القوقازيِّين في بلاد فارس، والفريجيانيُّون (Phrygians) انضمُّوا إلى شعوب آسيا الصغرى، والأخيون (Achaeans) والدوريانيون (Dorians) إلى اليونان وجزر كريت، والأمبيريُّون (Umbrians) والأوسكانيُّون (Oscans) إلى إيطاليا. كان النورديُّون في كلِّ مكان يرحلون إليه مُغامرين ومُحاربين وأقوياء الإرادة، واتَّخذوا شعوب البحر المتوَسِّط الكسالى المُضطربين إمَّا عبيدًا أو مَحكومين لهم، وتزاوجوا مع المتوَسِّطين الهادئين المُذعنين من جبال الألب فأنجبوا الأثينيِّين في قمَّة ازدهار عصر بركليس[١] والرومان أصحاب الدولة. الدوريانيُّون أقلُّ مَنْ تزَوَّجوا من غيرهم من الأعراق وأخرجوا الأسبارطيِّين، طائفة نورديَّة مُحاربة حكمت

[١] بيركليس (Pericles) : (٤٩٥ ق.م. – ٤٢٩ ق.م.) سياسيٌّ أثينيٌّ، حكم أثينا بشكل مُتقَطِّع من عام ٤٦٠ ق.م. حتَّى وفاته، ووصلت أثينا في عهده إلى قمَّة ازدهارها.

هيلوتس[١] البحر المتوَسِّط. الزواج المُختلط أضعف وأنعم أظافر الجنس النورديِّ في أتيكا، وأدَّى إلى هزيمة أثينا من إسبرطة في الحرب البيلوبونيسيَّة[٢]، وأدَّى إلى إخضاع اليونانيِّين من قِبَل العِرْق النورديِّ الأنقى في مقدونيا والدولة الرومانيَّة.

في إغراقٍ آخر للسُّلالة النورديَّة، من الإسكندنافيِّين والألمان الشماليِّين، غزا المُخرِّبون والهمجيُّون من قبائل القوط والوندالي الإمبراطوريَّة الرومانيَّة؛ وغزا الأنجليُّون والساكسونيُّون إنجلترا وأعطوها اسمًا جديدًا؛ واحتلَّ الفرنجيُّون بلاد الغال وأعطوها اسمهم. وفي وقت لاحقٍ، غزا النورديُّون النورمان فرنسا وإنجلترا وسيسلي. والنورديُّون اللُّومبارد تبِعوا أصولهم المُمْتدَّة إلى إيطاليا، ثمَّ تزَوَّجوا من أهلها وأعادوا إلى مدنها الحياة، وأطلقوا عصر النهضة من مدينتي ميلان وفلورنسا. النورديُّون الفارانجيُّون غزوا روسيا وحكموها حتى ١٩١٧م. النورديُّون الإنجليز استعمروا

---

[١] الهيولتس هي طبقة من العبيد في إسبرطة القديمة، كانوا يُجبرَون على العمل في حقول مُلاَّك الأراضي، في مُقابل الحماية والحقِّ في العمل.

[٢] الحرب البيلوبونيسيَّة (Peloponnesian War): (٤٣١ ق.م. – ٤٠٣ ق.م.) بدأت بسبب التوَسُّعات الاستعماريَّة والتجاريَّة لأثينا على حساب كورنث حليفة إسبرطة، أضعفت هذه الحرب اليونان حتَّى قدوم فيليب المَقدونيِّ.

أمريكا وأستراليا، وغزوا الهند، ووضعوا حراستهم على كلِّ ميناء رئيس في آسيا.

وتحَسَّر جرانت في كتابه على تفريط هذا العرق النورديِّ في سيادته على باقي الأعراق! لقد فقد يده العليا في فرنسا في ١٧٨٩م؛ كما أخبر كامي ديمولان[١] جمهوره، الثورة كانت احتجاجًا من السُّكَّان الأصليِّين الغال الألبينيِّين على الفرنجيِّين التيوتونيِّين الذين قهروهم تحت حكم كلوفيس وشارلمان[٢]. إنَّ الحملات الصليبيَّة، وحرب الثلاثين عامًا، والحروب النابليونيَّة، والحرب العالميَّة الأولى، استنزفت السُّلالة النورديَّة، وتركتها أضعف جدًّا من أن تقاوم مُعدَّلات الولادة الأعلى عند الألبينيِّين وعرق البحر المتوَسِّط في أوروبا وأمريكا. بحلول عام ٢٠٠٠م تنبَّأ جرانت أنَّ العرق النورديَّ سيكون قد سقط من الحكم، وأنَّه بسقوطه ستختفي الحضارة الغربيَّة في بربريَّة جديدة تموج في كلِّ الأرجاء داخل حدود

---

[١] كامي ديمولان (Camille Desmoulins): (١٧٦٠ – ١٧٩٤) كان صحفيًّا وسياسيًّا، لعِب دورًا مُهمًّا في الثورة الفرنسيَّة، تمَّت مُحاكمَته وأُعدم جنبًا إلى جنب مع دانتون.

[٢]كلوفيس الأول (Clovis I): (٤٦٦ – ٥١١) كان أوَّل ملك للفرنكيِّين يوحِّد جميع القبائل تحت حاكم واحد، ويُعتبر مؤسِّس فرنسا، وحكم سلالة الميروفنجيين التي حكمت الفرنكيِّين لقرنين.

أما شارلمان (Charlemagne): (٨١٤ – ٧٤٢) الابن الأكبر للملك بيبين الثالث مؤسِّس حكم أسرة الكارولنجيِّين في حين يُعتبر هو أعظم ملوكها، كان ملك الفرنجة حاكم إمبراطوريَّتهم بين عامي (٧٦٨ – ٨٠٠) وإمبراطور الإمبراطوريَّة الرومانيَّة المُقدَّسة بين عامي (٨٠٠ – ٨١٤).

بلادهم وخارجها، لكنَّه اعترف بحكمة أنَّ «عرق» البحر المتوَسِّط، وإن كان أضعف جسدًا من النورديِّين والألبينيِّين، أثبت قدرات ذهنيَّة مُتفَوِّقة ونُبوغًا فنِّيًّا؛ فلهم الفضل في تفَتُّح كلاسيكيَّات روما واليونان؛ لكن يُمكن أن يكون الفضل في هذا لزواجهم من العِرْق النورديِّ في الأساس.

بعض نقاط ضعف نظريَّة الأعراق واضحة، فيُمكن مثلًا لمُثقَّف صينيٍّ أن يُذكِّرنا أنَّ شعبه أقام أكثر الحضارات تعميرًا في التاريخ - رجال دولة، ومُخترعين، وفنَّانين، وشعراء، وعلماء، وفلاسفة، ورجال دين - منذ ٢٠٠٠ قبل الميلاد وحتَّى وقتنا الحاليِّ، ويُمكن لمُثقَّف مكسيكيٍّ أن يُذكِّرنا بأبنية المايا والأزتك الفخمة، وحضارة الإنكا في أمريكا قبل اكتشاف كولومبوس، ومُثقَّف هندوسيٍّ، وإن كان سيعترف بتسَرُّب العِرْق «الآريِّ» إلى شمال الهند منذ نحو ستة عشر قرنًا قبل الميلاد، إلَّا أنَّه سيذكر - أيضًا - شعب درافيدا ذا البشرة السمراء الذي يعيش في جنوب الهند، وأخرجوا بنَّائين عظماء وشعراء خاصِّين بهم، معبد مارداس ومادورا وترايكينوبولي تُعدُّ من بين أكثر البنايات إذهالًا على الأرض، حتَّى ضريح الخمير الشاهق في أنجكور وات أكثر إذهالًا وروعة. التاريخ

مُصاب بعمى الألوان، ويُمكنه أن يُطوِّر حضارة (في أي بيئة مُناسبة) بأيِّ جنس تقريبًا.

تظلُّ الصِّعاب مَوجودة حتَّى لو حصرنا النظريَّة على الرجل الأبيض! أبناء العِرْق السامي سيتذَكَّرون الحضارة البابليَّة، والآشوريُّون سيتذَكَّرون سوريا وفلسطين وفينيقيا وقرطاجة والإسلام. اليهود أعطوا الكتاب المُقدَّس والمسيحيَّة لأوروبا، ومُعظم القرآن لمحمَّدٍ، وأتباع محمَّد - أيضًا - يُمكِنهم سرد الحكَّام والفنَّانين والشعراء والفلاسفة الذين غزوا البلاد، وتركوا زخارفهم وبصمتهم في أجزاء جوهريَّة من حياة الرجل الأبيض من بغداد إلى قرطبة، بينما كانت حضارة أوروبا الغربيَّة تلتمس طريقها خلال العصور المُظلِمة (من ٥٦٥ ميلاديًّا وحتَّى ١٩٠٥).

من الواضح أنَّ الحضارات القديمة في مصر واليونان وروما كانوا نتاج الفرصة الجغرافيَّة التي أتاحتها الظروف والتقَدُّم السياسيُّ والاقتصاديُّ، وليس التركيبة العِرْقيَّة، ومُعظم حضارتهم له أصول شرقيَّة[١٤]. اليونان أخذوا فنونهم ورسائلهم من آسيا الصغرى وكريت وفينيقيا ومصر.

في الألفيَّة الثانية قبل الميلاد كانت الحضارة اليونانيَّة «الموكيانيَّة»[١] جزء منها كان مُستقًى من كريت التي كانت تعَلَّمت من آسيا الصغرى، عندما قدم «النورديون» الدوريان إلى ذلك المكان مارِّين بالبلقان، نحو ١١٠٠ قبل الميلاد، قاموا بتدمير مُعظم هذه الثقافة اليونانيَّة البدائيَّة؛ ولم تخرج الحضارة اليونانيَّة التاريخيَّة على صورتها التي نمَيِّزها بها الآن إلَّا بعد بضعة قرون. إسبرطة التي أخرجت ليكورغوس، وطاليس الذي خرج من مالتوس، وهرقليطس من أفسس، ومدينة لسبوس التي خرج منها صافو، وسولون الأثينيُّ[٢]، بدءًا من القرن السادس قبل الميلاد، نشر اليونان ثقافتهم على امتداد البحر المتوَسِّط في دورازو وتارانتو وكروتوني وريجيو كالابريا وسيراكيوز ونابولي ونيس وموناكو ومرسيليا وملقة.

[١] يونان الموكيانيَّة (Mycenaean Greece): (١١٠٠ – ١٦٠٠ ق.م.) هو مصطلح يُشير إلى أواخر العصر البرونزيِّ لليونان القديم، كانت اليونان في ذلك الوقت مُتطوِّرة في الهندسة والمعمار والتجهيزات العسكريَّة.

[٢] ليكورغوس (Lycurgus of Sparta) المشرِّع الأسطوريُّ بإسبرطة الذي حوَّلها إلى مجتمعٍ عسكريٍّ. وطاليس (Thales of Miletus) رياضيٌّ وعالم فلك وأوَّل فيلسوف يونانيٍّ.

وهرقليطس (Heraclitus) فيلسوف يوناني في عصر ما قبل سقراط. تأثَّر بأفكاره كلٌّ من سقراط وأفلاطون وأرسطو.

أمَّا صافو (Sappho) فهي شاعرة يونانيَّة تركت مجموعة قصائد شعريَّة كانت معروفة ومحبوبة في العصور القديمة، وتعد رمزًا للحب المثلي بين النساء.

وسولون (Solon) مشرع، شاعر ورجل قانون أثيني، قام بسن مجموعة من القوانين الإصلاحية التي مهدت لقيام الديمقراطية الأثينية على الرغم من فشلها في وقتها.

من المدن اليونانيَّة في جنوب إيطاليا، وتقريبًا من إتروريا ذات الثقافة الآسيويَّة، تكَوَّنت حضارة روما القديمة، ومن روما جاءت حضارات أوروبا الغربيَّة، ومن أوروبا الغربيَّة جاءت حضارات أمريكا الشماليَّة والجنوبيَّة. هناك العديد من قبائل السلتيك والتيوتوني والقبائل الآسيويَّة في القرن الثالث القادم من عصرنا التي قامت بتدمير إيطاليا والثقافات الكلاسيكيَّة. يصنع الجنوب حضارة، فيغزوهم الشمال، يُحطِّمهم ويستعير حضارتهم وينشرها... يُمكن أن نعدَّ هذا مُلخَّصًا مُوجزًا للتاريخ.

مُحاولات إيجاد عَلاقة بين الحضارات والأعراق عن طريق حساب مدى ارتباط المخِّ بالوجه أو بالوزن أسقطت قدرًا ضئيلًا من الضوء على المشكلة الحقيقيَّة. إذا لم ينتج الزنوج الأفارقة أيَّ حضارة؛ فذلك في الغالب لأنَّ الظروف المناخيَّة والعوامل الجغرافيَّة أحبطت كلَّ مُحاولاتهم. هل كان أيٌّ من «الأعراق» البيضاء سيُبلي أحسن منهم في تلك الظروف نفسها؟ من المُذهِل كم الزنوج الأمريكيِّين الذين نبغوا في أماكن رفيعة من وظائف وفنون وأدب في المائة عام الماضية على الرغم من وجود آلاف المُعوِّقات الاجتماعيَّة.

إنَّ دور العِرْق في التاريخ دور تمهيديٌّ أكثر من كونه دورًا

خلَّاقًا، تدخل السلالات المختلفة منطقة مُعيَّنة من اتجاهات مختلفة وفي أوقات مُتفاوِتة، تختلط دماؤها وتقاليدها وطرق حياتها بعضها مع بعض أو مع السُّكَّان الأصليِّين، كما تختلط مجموعتان مختلفتان من الجينات في التكاثر الجنسي على مستوى الأفراد. يُمكن لهذا الخليط العرقيِّ أن يُنتج في غُضون بضعة قرون نوعًا جديدًا أو حتَّى شعبًا جديدًا؛ لذلك فالكِلْت والرومان والأنجل والساكسون والجوت والدنماركيُّون والنورمانيُّون التحموا معًا ليكَوِّنوا الشعب الإنجليزيَّ. عندما يأخذ النوع الجديد شكلًا مُعيَّنًا تكون تعبيراته الثقافيَّة فريدة له، وتكوّن حضارة جديدة... تركيبًا جديدًا، وشخصيةً جديدة، ولغة جديدة، وأدبًا جديدًا، ودينًا جديدًا، وأخلاقًا جديدة، وفنًّا جديدًا. لا يُحدِّد العِرْق طبيعة الحضارة، بل بالعكس... تُحدِّد الحضارة طبيعة الناس الذين يبنونها: الظروف الجيولوجيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة هي التي تخلق الثقافة، والثقافة بدورها تؤثِّر على خصال وطباع الناس. الرجل الإنجليزيُّ لا يكوِّن الكثير من الحضارة الإنجليزيَّة بقدر ما تُكوِّنه الحضارة الإنجليزيَّة؛ إذا تمَثَّل بقيمها أينما ذهب حتى ارتدى زيَّه الرسميَّ أثناء عشاء في تمبكتو[١]، فإنَّه لا يخلق الحضارة الإنجليزيَّة من جديد هناك، بقدر ما يعترف بفعله ذلك أنَّها

[١] مدينة في مالي، وهي من أهم العواصم الإسلامية في غرب أفريقيا.

حتى هناك تُهيمن على روحه على المدى البعيد، ترضخ هذه الاختلافات في العادات أو الطبيعة لتأثير الظروف البيئيَّة. يأخذ الرجال القادمون من الشمال طباع ساكني الجنوب إذا مكثوا في المناطق الاستوائيَّة مدَّة كافية، وأحفاد الرجال القادمين إلى الشمال بهدوء وسعة صدر الجنوبيِّين يكتسبون إيقاع الحركة والتفكير السريع الذي يجدونه في الشمال.

من هذا الجانب الذي نستعرض منه الأمور، يُمكننا أن نحكم على المجتمع الأمريكيِّ أنَّه ما زال في مرحلة الِامتزاج العرقيِّ. في الفترة ما بين ١٧٠٠م و١٨٤٨م كان الأمريكيُّون البيض القادمون من شمال فلوريدا معظمهم أنجلوساكسونيِّون، وكان أدبهم ينبعث بأحاديث عن إنجلترا القديمة والأرض الإنجليزيَّة الجديدة، وبعد ١٨٤٨م فتحت أمريكا أبوابها لكلِّ السلالات البيضاء؛ بدأ اندماج عِرْقيٌّ جديد سيأخذ مَساره لقرون قادمة. عندما تنعدم مثل هذه الِاختلاطات يتكَوَّن نوع مُتجانس مُستقِرٌّ جديد، ربَّما يُصبح لأمريكا لغتها الخاصَّة (المختلفة عن الإنجليزيَّة كما تختلف الإسبانيَّة عن الإيطاليَّة) وأدبها الخاصُّ وطباعها الفنِّيَّة المُمَيِّزة لها، وهذه الأشياء كلُّها بالفعل في طريقها إلى التكوين والنُّضوج.

الكراهية «العرقيَّة» لها بعض الجذور في أصولنا الوراثيَّة،

لكنَّها - أيضًا - تتكَوَّن في غالب الأحيان بسبب اختلاف العناصر الثقافيَّة من اللُّغة والملبس والعادات والأخلاق والدين. لا يُوجد علاج لمثل هذه الكراهية إلَّا بالتعليم الذي يفتح الآفاق. يُمكن لدراسة التاريخ أن تُعلِّمنا أنَّ الحضارة مُنتج يحتاج إلى تعاون الجميع، وأنَّ كلَّ الناس تقريبًا قد أسهموا في تكوينه؛ فهي بذلك إرثنا وأمانتنا المُشتركة؛ والروح المُتحضِّرة هي تلك التي يظهر منها هذا المعنى في مُعاملتها لجميع الرجال والنساء، مهما كانوا أدنى منها مكانةً، على أنَّهم مُمَثِّلو إحدى هذه المجموعات التي شاركت وصنعت وكان لها أثر في هذا البناء المُشترك.

الشخصيَّات والتاريخ

لا تُبنى المجتمعات على الفضائل والمُثُل العليا، ولكن تُبنى على طِباع البشر، ودستور الولايات والدول يُعيد كتابته دستور الإنسان، لكن... ما دستور الإنسان؟

يُمكننا أن نُعَرِّف الطبيعة البشريَّة على أنَّها الميول الأساسيَّة والمشاعر المُتأصِّلة في الجنس البشريِّ، سنُطلق على أكثر الميول أوليةً الغرائز، على الرغم من ملاحظتنا أن جدلًا كثيرًا قد أُثير حول خصائصهم الفطريَّة.

يُمكننا أن نصف الطبيعة البشريَّة من خلال «جدول الصفات الأوَّليَّة» المُعطى في الصفحة القادمة. البشر في هذا التحليل مُزوَّدون بـ«طبيعتهم» (هنا المقصود بطبيعتهم الوراثيَّة) بسِتِّ غرائز إيجابيَّة وستٍّ أخرى سلبيَّة، غرائز من شأنها أن تحفظ الفرد أو الأسرة أو الجماعة أو الفصيلة ككلٍّ. في الشخصيَّات

الإيجابيَّة تسود الطِّباع الإيجابيَّة، ولكنَّ معظم الأفراد مُزوَّدون بكلا النوعين من الطباع: الإيجابيَّة والسلبيَّة، حتَّى تُمكِّنهم من مُواجهة أو تجَنُّب (على حسب الحالة أو الظروف) تحدِّيات الحياة الأساسيَّة أو فرصها. كلُّ غريزة تولد عادة وتكون مَصحوبة بمجموعة من المشاعر، هذه الأشياء في كلِّيَّتها تمَثِّل طبيعة الإنسان.

جدول الصفات الأوَّليَّة					
غرائز		عادات		مشاعر	
إيجابيَّة	سلبيَّة	إيجابيَّة	سلبيَّة	إيجابيَّة	سلبيَّة
		لعب	راحة	مرح	إجهاد
		عمل	تراخي	طاقة	تثاقُل
		فضول	لا مُبالاة	حماس	ملَل
حركة	خُمول	تلاعُب/ استغلال	تردُّد	اندِهاش	شكّ
		تفكير	حلم	انهِماك	فراغ
		إبداع	تقليد	إرادة	استسلام
		فنّ	فوضى	شعور بالجمال	ارتباك

قِتال	هروب	مقاربة منافسة مشاكسة سيادة	هروب تعاون جُبن إذعان	شجاعة تنافُسيَّة غضب فخر	قلق ودّ خوف تواضُع
تملُّك	تجَنُّب	أكل ادِّخار امتلاك	رفض صرف فقر	جوع طمع رغبة في الِامتلاك	قرف إسراف انعدام الأمن
ارتباط	خصوصيَّة	تواصُل سعي للقَبول كرم	انعِزال خوف من الرفض أنانية	حبُّ الِاختلاط بالناس تكَبُّر طيبة	كتم/سرِّيَّة حياء عدائيَّة
التزاوُج	رفض	النشاط الجنسي المُغازَلة	الِانحراف الجنسي الخجل	الخيال الجنسي الحبُّ الجنسي	الِاضطرابات الجنسيَّة الِاحتشام
رعاية أبويَّة	اعتماديَّة طفوليَّة	مُحافظة على الأسرة	ثورة طفوليَّة	حبٌّ أبويٌّ	استياء طفوليٌّ

لكن إلى أيِّ مدى تغَيَّرت الطبيعة البشريَّة على مدار التاريخ؟ نظريًّا لا بدَّ من وجود بعض التغَيُّر؛ من المُفترض أنَّ الِانتقاء الطبيعيَّ قد أثَّر على المُتغَيِّرات النفسيَّة، كما أثَّر على المُتغَيِّرات العُضويَّة، لكن على الرغم من ذلك يروي التاريخ المُسَجَّل القليل من التغَيُّرات في سلوك الإنسان.

اليونانيُّون الذين عاشوا في عصور أفلاطون تصَرَّفوا بشكلٍ مُشابِهٍ جدًّا للفرنسيِّين في القرون الحديثة، والرومان تصَرَّفوا مثل الإنجليز. تتغَيَّر الطرُق والوسائل، لكن تظلُّ الدوافع والغايات على حالها: فعل أو سكون، أخذ أو عطاء، هجوم أو تراجُع، سعي لِلارتباط بالآخرين أو فرديَّة، تزاوُج أو رفض، تقديم رعاية أبويَّة أو نفور منها. ولا تختلف طباع البشر حتَّى في ظهورها بين الطبقات، إلى حَدٍّ بعيد لا يُوجد اختلاف بين نزعات الفقراء والأغنياء، كلاهما فقط يختلف في امتلاكه المَهارة والفرص المُناسبة والوسائل لدفعها. لا شيء أوضح في التاريخ من تبَنِّي الثائرين الناجحين للطرق التي اعتادوا أن يمقُتوها حين كانت تُمارِسها القوَّات التي أطاحوا بها.

تطوُّر الإنسان خلال حِقَب التاريخ المُسجَّل إذن ليس تطوُّرًا بيولوجيًّا، ولكنَّه اجتماعيٌّ، يتقدَّم لا بالصفات المُتوارَثة في النوع، ولكن في الأغلب بالتجديدات الاقتصاديَّة والسياسيَّة والمعرفيَّة والأخلاقيَّة، التي تنتقل كلُّها عبر الأجيال بالتقليد والعادات والتعليم.

إنَّ العادات والتقاليد في الجماعات تُحاكي النوع والصفات المُتوارثة فيه، وتُحاكي الغرائز المَزروعة في أفراده؛ فهي طُرُق جاهزة للتأقلم مع المواقف المُتكَرِّرة والمُعتادة. وعلى الرغم

من ذلك تتطَلَّب المواقف الجديدة عند ظهورها حلولًا جديدة وغير مَألوفة؛ وبذلك، فإنَّ التطوُّر في الكائنات العليا يتطَلَّب قدرة واسعة للتجربة والِابتكار، وهذه هي النظائر الاجتماعيَّة للتنوُّع والطفرات. التطوُّر الاجتماعيُّ عمليَّة تتمُّ بتفاعُل العادات مع الإبداعات.

في هَذا السياق يستعيد «العظماء» و«الأبطال» و«العباقرة» مكانهم كقوَّة تشكيليَّة في التاريخ. هؤلاء الرجال ليسوا كالإله الذي وصفه كارليل[١]؛ فهم يتعدَّون حواجز أزمنتهم وأماكنهم، هم نتاج ورمز للأحداث التي عاشوها، كما أنَّهم روَّادها وأصواتها التي تتحَدَّث عنها؛ فبدون المواقف التي تتطَلَّب حلولًا جديدة لن تكون أفكارهم الجديدة في محلِّها، ولن يكون لها أيُّ فاعليَّة. عندما يكون أحدهم بطلًا ذا تأثير وخطوات فعَّالة، فإنَّ مُتطلَّبات مَوقفه ومُجريات عصره واحتدام الأزمات حوله تُحرِّكه إلى منزلة وقوة لم تكن لِتُتاح له في الظروف العاديَّة، ولظلَّت هذه المكانة والسلطة في عداد المُمْكنات التي لم تستغلّ بعد. لكنَّه ليس مجرَّد نتيجة، فالأحداث تتطوَّر وتتحَرَّك من خلاله كما تتحَرَّك وتتطَوَّر حوله؛ وأفكاره وقراراته تُغَيِّر بشكل مهمٍّ في مجريات

[١] توماس كارليل (Thomas Carlyle): (١٧٩٥ - ١٨٨١) كاتب إسكتلندي وناقد ساخر ومؤرخ. ألف كتاب الأبطال وعبادتهم الذي قدم فيه صورة البطل الإله أودين.

التاريخ. في بعض الأوقات يُمكن أن تقدر خَطاباته بالآلاف من الكتائب كما كان تشرشل، أو يكون بُعد نظره وبصيرته في الاستراتيجيَّات والتكتيكات قادرًا على الفوز بالمعارك والحملات وإنشاء الدول كما كان نابليون، كما يُمكن لتعاليمه وحكمة وَعْظه لو كان نبيًّا كمحمَّد أن ترفع أمَّة فقيرة لا تتمَتَّع بالعديد من المزايا إلى موقع سلطة مَهيب وطُموح لا حدود له، سواءٌ كان باستير أو مورس أو أديسون أو فورد أو الأخوان رايت أو ماركس أو لينين أو ماو تسي تونج[١]، فجميعهم نتيجة

---

[١] باستير (Louis Pasteur): عالم كيميائي فرنسي وأحد أهم مؤسسي علم الأحياء الدقيقة في الطب، ويُعرف بدوره المميز في بحث أسباب الأمراض وسبل الوقاية منها.

مورس (Morse): مخترع ورسام أمريكي يرجع له الفضل في اختراع التلغراف.

أديسون (Thomas Edison): مخترع ورجل أعمال أمريكي، من أوائل المخترعين الذين قاموا بتطبيق مبدأ الإنتاج الشامل وأول من أنشأ مختبرًا للأبحاث الصناعية.

فورد (Henry Ford): رجل أعمال وصاحب شركات أمريكي واسع التأثير ومؤسس شركات فورد.

الأخوان رايت (Wright brothers): مشهوران بتجاربهما في مجال الطيران واختراع أول طائرة ترتفع في الهواء بنجاح.

كارل ماركس (Karl Marx): فيلسوف ألماني، واقتصادي، وعالم اجتماع، ومؤرخ، وصحفي لعبت أفكاره دورًا مهمًّا في تأسيس علم الاجتماع وفي تطوير الحركات الاشتراكية.

لينين (Lenin): ثوري روسي ماركسي وقائد الحزب البلشفي والثورة البلشفية، كما أسس المذهب اللينيني السياسي رافعًا شعاره الأرض والخبز والسلام.

ماو تسي تونج (Mao Tse-tung): كان سياسيًّا وقائدًا عسكريًّا صينيًّا، أصبح زعيم الحزب الشيوعي الصيني منذ ١٩٣٥ حتى وفاته.

لأعداد ضخمة جدًّا من العوامل، وفي الوقت ذاته أسباب لعدد لا حصر له من النتائج.

في جدول الصفات الذي عرضناه التقليد صفة مُقابلة للإبداع، لكن في حقيقة الأمر هما صفتان مُتعاوِنتان بشكل حيويٍّ، فذوو الطباع المُذعِنة والتابعة يتَّحدون مع الشخصيَّات القياديَّة ليُكوِّنوا المجتمع بترتيبه ووظائفه، فالأغلبيَّة المُقلِّدة تتبع القلَّة المُبدعة، والأخيرة بدورها تتبع الرائد الخلَّاق في تبنِّي الحلول المُجدِّدة لمواجهة تحدِّيات البيئة الجديدة والصعوبات التي يُواجهونها من أجل البقاء، فإذا نظرنا للتاريخ على نِطاق واسع لوجدنا أنَّه يقوم كصراع بين القلَّة المُبتكرة والفعَّالة، بينما تكون الأغلبيَّة في صفِّ المُنتصر تُصفِّق لانتصاراته، وتُوفِّر بدورها المادَّة البشريَّة اللَّازمة للقيام بالتجارب الاجتماعيَّة.

لذا، فالإنتاج الثقافيُّ والمَعرفيُّ قوَّة مهِمَّة في تحريك مَسار التاريخ، لكنَّها يُمكن أن تكون قوَّة مُحلِّلة ومُدمِّرة أيضًا!

من وسط مائة فكرة جديدة مطروحة لتستبدل فكرة قائمة هناك تسع وتسعون منها لن ترتقي لتكون ندًّا مُناسبًا للفكرة الأصليَّة الموجودة بالفعل التي تُحاول أن تحلَّ محلَّها. لا يُوجد رجل واحد يستطيع مهما كان عبقريًّا ومهما حصَّل من

العلم أن يصل في حياة واحدة إلى مستوًى من الحكمة والكمال يجعله قادرًا أن يحكم على عادات وتقاليد مجتمعه ومؤسَّساته ويستبدلها بأمانٍ؛ لأنَّ هذه العادات والتقاليد والمؤسَّسات القائمة هي نتاج خبرات وتجارب أجيال عبر مئاتٍ من السِّنين في مُختبر التاريخ.

قد يتساءل شابٌّ تفور الهرمونات في جسده: لماذا يجب عليه أن يكبح رغباته الجنسيَّة ولا يعطيها حرِّيَّتها بالكامل؟! وفي الحقيقة هو لو ترك بدون الضوابط الاجتماعيَّة من العادات وبدون الأخلاق والقانون، قد يُدمِّر حياته قبل أن يصل إلى نُضج كافٍ يُلاحظ معه أن الجنس نهر من النيران المُشتعلة، إن لم تحدَّه وتُساعد في إخماده المئات من القيود سيجرف ويستنزف الأفراد والجماعات في عشوائيَّته وقوَّته.

لذلك، فالمُحافظ الذي يُقاوم التغيير مهمٌّ للمجتمع مثله مثل الراديكالي الذي يسعى لتغييره، بل قد يكون أكثر أهمِّيَّةً منه كما تكون الجذور أهمَّ للشجرة وأكثر حيوِيَّة من الجذوع. من الجيِّد أن تُسمع الآراء الجديدة حتى تأخذ الأفكار القليلة منها القابلة للتنفيذ والِاستخدام مساحتها للصعود، لكن من الجيِّد - أيضًا - أن تتعَرَّض هذه الأفكار الجديدة لطواحين

الرفض والِاعتراض والمُقاومة؛ هذه العوامل تقِفُ بمثابة اختبار حراريٍّ للأفكار قبل أن يُسمح لها أن تدخل على العِرْق البشريِّ. من المُفيد والجيِّد أن يُقاوم الكبار الصغار، وأن يندفع الجيل الأصغر في وجه الجيل الأكبر منه؛ بين هذا الشَّدِّ والجذْبِ، كما يكون الحال في التجاذُب بين الطبقات والأجناس، تخرج قوَّة خلَّاقة جاذِبة، ويُولَد تطَوُّر تستحِثُّه هذه الحركة، وتولد وحدة خفيَّة وأساسيَّة للكلِّ، ويشرع الكلُّ في الحركة.

الأخلاق والتاريخ

الأخلاق هي مجموعة القواعد التي يُحاول من خلالها المجتمع أن يحضَّ أفراده ومؤسَّساته (كما أنَّ القانون هو مجموعة القواعد التي من خلالها يُحاول أن يُجبرهم) على الالتزام بسلوكيَّات وتصَرُّفات مُتَّسقة مع نظام هذا المجتمع وأمنه ونمُوِّه، بذلك ولسِتَّة عشر قرنًا استطاعت المقاطعات اليهوديَّة التي تعيش تحت دول نصرانيَّة أن تحافظ على اتِّصالها وسلامها الداخلي باتِّباعها لكود أخلاقي صارم ومُفصَّل دون مُساعدة – تقريبًا – من الدولة أو قوانينها.

في بداية علمك بالتاريخ ومجرياته يتأكَّد لك مدى التغَيُّر الذي يطرأ على الأكواد الأخلاقيَّة بتغَيُّر الزمان والمكان، ممَّا يؤكِّد عدم أهمِّيَّتها وإمكانيَّة إهمالها؛ لأنَّها قد تصل أحيانًا إلى مُناقضة بعضها بعضًا. عندما يتَّسع علمك تُدرِك اتِّفاق النُّظم الأخلاقيَّة في جوهرها وعمومِيَّتها، ويتأكَّد لها ضرورتها.

تختلف الأكواد الأخلاقيَّة؛ لأنَّها تتأقلم مع الظروف البيئيَّة والسياق التاريخيِّ. إذا قسمنا التاريخ الاقتصاديَّ إلى مراحل ثلاثة: مرحلة الصيد، تليها مرحلة الزراعة، ثم الصناعة... نستطيع التنبُّؤ بأنَّ الأكواد الأخلاقيَّة في مرحلة ما ستختلف عن التي تليها.

في مرحلة الصيد كان يجب أن يكون الإنسان مُستعدًّا أن يُطارد ويجري ويقتل، وعندما كان يُمسك بفريسته فإنَّه كان يأكل حتَّى يملأ بطنه عن آخرها؛ لأنَّه لم يكن يعلم متى يُمكنه أن يأكل مُجدَّدًا! الخوف وعدم الأمن يخلقان في النفس الجشع، كما أنَّ القسوة هي ترَسُّبات تركتها في الذاكرة - ولو فقط في ذاكرتنا البيولوجيَّة - تلك الأوقات التي كان فيها تحَدِّي البقاء تحسمه قدرتك على قتل غيرك (كما هو الحال الآن بين الدول)، ولأنَّ معدَّل الموت في الرجال - لتعريضهم حياتهم للخطر مُعظم الوقت أثناء الصيد - من المُفترض أنَّه كان أعلى من معدَّل الموت بين النساء؛ كان على بعض الرجال أن يتزَوَّجوا العديد من النساء، وكان على كلِّ رجل أن يُنجب منهنَّ بشكلٍ دوريٍّ.

إنَّ الشراسة والقدرة على التدافع والطمع والاستعداد الجنسي كانوا جميعًا صفات تُمَيِّز صاحبها وتُعطيه الأفضليَّة

في صراع البقاء، كلُّ رذيلة تقريبًا كانت في يوم من الأيَّام فضيلة، بمعنى أنَّها كانت صفة تُعطي لصاحبها مِيزة وتساعده في حفظ نفسه وأسرته وجماعته، يُمكن أن تصبح خطايا الرجل آثاره المُقدَّسة التي يتقرَّب بها بدلًا من أن تكون جراحه التي تُسقِطه.

لا يُعطينا التاريخ المدوَّن معلومات دقيقة عن الوقت الذي تحوَّل فيه الإنسان من الصيد إلى الزراعة، ربَّما في العصر الحجريِّ الحديث من خلال اكتشاف أنَّه يُمكن زيادة النموِّ التلقائيِّ للقمح البرِّيِّ عن طريق زرع حبوبه في التربة. يُمكننا أن نفترض افتراضًا مقبولًا أنَّ النظام الجديد تطلَّب مجموعة جديدة من الفضائل، وتطلّب أن يتحَوَّل بعض ما كان يُعدُّ فضيلة إلى رذائل. الِاجتهاد أصبح أكثر أهمِّيَّة من الشجاعة، والِانتظام والمُثابرة والِادِّخار أنفع من العنف، وأصبح للسلام اليد العليا على الحرب.

كان الأطفال ثروة استثماريَّة، لذلك كان تحديد النسل عملًا غير أخلاقيٍّ. في المزارع كانت العائلة هي وحدة الإنتاج تحت ضوابط الأب والقواعد التي تُمليها عليهم المواسم، وكان للسلطة الأبوِيَّة جذور اقتصاديَّة راسخة. كلُّ الأطفال في العادة كان سريعًا ما ينضجون ذهنيًّا وفي قدرتهم على القيام بأنفسهم؛ ففي سنِّ الخامسة عشرة كان الولد يكتمل استيعابه لمهامِّه

الجسديَّة المَنوطة به، كما سيظلُّ استيعابه لها في سنِّ الأربعين، وكلُّ ما كان يحتاج إليه حينها هو قطعة من الأرض ومِحراث وذراعه المُستعدَّة للعمل. لذلك كان يتزَوَّج باكرًا، تقريبًا بمُجرَّد أن تأذن له الطبيعة بذلك؛ خاصَّةً مع نُشوء الضغوط الاجتماعيَّة من المجتمع الجديد الذي يُفضِّل الاستقرار وبناء الأسر على العَلاقات قبل الزواج، ولم يكن ليُقحِم نفسه طويلًا في هذه الضغوط ومشاكلها وتَبِعاتها.

أمَّا على جانب النساء، فالعُذريَّة صارت أمرًا ضروريًّا؛ لأنَّ فقدانها قد يؤدِّي إلى حضانتها لطفلٍ وحدها دون رعاية أو حماية أبٍ! وأصبح تعَدُّد الزوجات أمرًا غير مقبول؛ نظرًا لتقارُب أعداد الرجال والنساء في المجتمع الزراعيِّ الجديد. لنحو خمسة عشر قرنًا من الزمن صار هذا الكود الأخلاقيُّ الذي ينصُّ على ضرورة السيطرة على الشهوات، والزواج المُبكِّر، ويرفض الطلاق، وتعَدُّد الزوجات، ويحُضُّ على الإنجاب، هو الكود الأخلاقيُّ السائد في أوروبا المسيحيَّة الكاثوليكيَّة، كما حافظ على نفسه في هذه المنطقة وفي المستعمرات الأوروبيَّة خارج القارَّة. لقد كان قانونًا صارمًا، وأخرج أقوى الشخصيَّات في التاريخ.

بعد ذلك وبصورة تدريجيَّة وبسرعة أكبر وعلى نطاق أوسع، غيَّرت الثورة الصناعيَّة في أوروبا وأمريكا النظام الاقتصاديَّ والكود الأخلاقيَّ الذي يستند إلى هذا النظام الاقتصاديِّ، ثمَّ بدأ يتسارع هذا التغيير وينتشر منهما إلى مناطق أخرى، خرج الرجال والنساء والأطفال من منازلهم، وخرجوا على حدود السلطة المرسومة والوحدة التي بنتها الأسرة، خرجوا حتى يعملوا كأفراد في مصانع لم تنشأ لتؤويهم، ولكن لتؤوي آلات التصنيع، ثمَّ ليتقاضى كلٌّ منهم أجره على حِدة. كلَّ عِقد كانت تتضاعف الآلات عددًا وتزداد تعقيدًا؛ لم يَعُد النضج الاقتصاديُّ (القدرة على تحمُّل مسؤوليَّة الأسرة ماديًّا) يأتي مُبكِّرًا، لم يَعُد الأطفال ثروة استثماريَّة، تأخَّر الزواج، وصارت السيطرة على الشهوات قبل الزواج أصعب في تحقيقها، صارت المدن تُقدِّم لك الأسباب لكيلا تتزوج، لكنَّها في المقابل تُوَفِّر لك كلَّ التساهيل والإغراءات لممارسة الجنس. تمَّ «تحرير» المرأة، أو بالأحرى تمَّ تحويلها إلى منتج مصنع، وانتشار الطرق التي تساعد على منع الحمل مكَّنهنَّ من أن يفصلن ممارسة الجنس عن الحمل والولادة. وفقدت سلطة الأب والأم جذورها الاقتصاديَّة شيئًا فشيئًا مع زيادة الفرديَّة الاقتصاديَّة في ظلِّ الصناعة، لم يَعُد على الشباب الثائر

أن يرضخ لقيود ومُراقبة القرية، صار بإمكانه أن يُخفي خطاياه وهويَّته في زحام المدينة وكثافة سكَّانها، رفع العلم التجريبيُّ بتقَدُّمه سلطة الأوراق البحثيَّة على سلطة النصوص الدينيَّة، وبدأ تطوُّر الاعتماد على الآلات ومَيكنة الصناعة والاقتصاد يُشير إلى الفلسفات المادِّيَّة، وصار التعليم يوَلِّد شكوكًا دينيَّة، وفقدت الأكواد الأخلاقيَّة طبيعتها الغيبيَّة شيئًا فشيئًا، بدأ الكود الأخلاقيُّ الزراعيُّ الهَرِم يحتضر.

في زمننا، كما كان الحال في زمن سقراط (٣٩٩ قبل الميلاد)، وفي زمن أغسطس (١٤ ميلاديًّا)، أضيفت الحروب للأسباب التي أدَّت إلى التراخي الأخلاقيِّ. بعد عنف الحرب البيلوبونيسيَّة والِاضطراب الاجتماعيِّ الشديد الذي سبَّبته، لم يشعر ألكيبيادس[١] بالحرج في أن يستهين بكود أجداده الأخلاقيِّ، ولم يتوَرَّع ثراسيماخوس[٢] أن يُعلن أن صاحب القوَّة هو الذي يحدِّد ما هو الصواب. بعد الحروب التي كانت بين ماليوس وسولا[٣]، وبين يوليوس قيصر وبومبيوس

---

[١] ألكيبيادس (Alcibiades): (٤٥٠ ق.م. – ٤٠٤ ق.م.) هو رجل سياسة وخطيب وقائد عسكريٌّ إغريقيٌّ بارز من أثينا القديمة.

[٢] ثراسيماخوس (Thrasymachus): سفسطائيٌّ إغريقيٌّ معروف لدوره في حوارات أفلاطون.

[٣] حروب أهليَّة دارت في روما القديمة بين غايوس ماريوس وسولا بين عامي ٨٩ و٨٨ قبل الميلاد.

الكبير[١]، وبين أنطونيوس وأوكتافيوس[٢]، «كانت روما مليئة بالرجال الذين فقدوا ثرواتهم وترسخ أخلاقهم: الجنود الذين تذوقوا طعم المغامرة وتعَلَّموا القتل، المواطنون الذين فقدوا مُدَّخراتهم في الحرب وبسبب التضَخُّم الذي سبَّبته، ومليئة بنساء أذهلتهُنَّ الحرِّيَّة، والعديد من حالات الطلاق والإجهاض والزنا، سفسطة سطحيَّة تفاخرت بما فيها من تشاؤميَّة واستخفاف وسخرية»[١٥]. هذه تقريبًا صورة لمدن أمريكا وأوروبا بعد حربين عالميَّتين.

يقدِّم التاريخ عزاءه لنا، ويُذكِّرنا أنَّ الأخطاء البشريَّة تنتشر في كلِّ العصور، حتى جيلنا الحاليّ لا يُضاهي في المثليَّة الجنسيَّة وانتشارها المجتمع اليونانيَّ أو الرومانيَّ أو إيطاليا في عصور التنوير! «كتب الإنسانيُّون عنها بنوع من التعاطُف العلميِّ، وقال أريوستو[٣] أنَّهم كانوا جميعًا مُدمنين لها!»، أريتينو[٤] على سبيل المثال أرسل إلى دوق مونتويا يطلب منه أن يرسل

---

[١] حروب أهليَّة نشأت في نحو عام ٦٠ قبل الميلاد في صراع بينهما على حكم روما.

[٢] آخر حرب أهليَّة رومانيَّة في الجمهوريَّة الرومانيَّة، نشبت بعد أن أعلن مجلس الشيوخ الرومانيُّ الحرب على الملكة المصريَّة كليوباترا، فانضمَّ أنطوني حبيبها وحليفها إليها ضدَّ الحكومة الرومانيَّة. وقعت بين ٣٢ و٣٠ قبل الميلاد.

[٣] لودوفيكو أريوستو (Ludovico Ariosto): (١٤٧٤ – ١٥٣٣) شاعر إيطاليٌّ من عصر النهضة.

[٤] بييترو أريتينو (Pietro Aretino): (١٤٩٢ – ١٥٥٦) شاعر وكاتب إيطالي من أبرز أدباء عصر النهضة. ذاع صيته واشتهر بهجائه اللاذع لأصحاب السُلطة في زمانه.

له شابًّا جذَّابًا![16] كانت الدعارة علنيَّة، ولا تنقطع من بيوت الدعارة التي أشرفت عليها الدولة الآشوريَّة[17] إلى «الملاهي الليليَّة» في مدن غرب أوروبا وأمريكا في أيَّامنا هذه.

في عام ١٥٥٤م في جامعة ويتنبيرج «أصبحت الفتيات أكثر جرأة، يُطاردن الزملاء إلى حجراتهم وغرفهم، وحيثما استطعن؛ ليعرضن عليهم حُبَّهنَّ المجَّانيَّ!»[18]. طبقًا لشهادة لوثر[1] يُخبرنا مونتين[2] أنَّه في زمانه خرجت الكتابات الأدبيَّة الفاحشة إلى سوق جاهز لِاستقبالها[19]، الفساد الأخلاقيُّ في زمننا يختلف فقط في نوعه لا في درجته عن ذلك المُنتشر في عصر استرداد الملكيَّة الإنجليزيَّة[3]؛ فرواية جون سيلاند الجنسيَّة مُذكِّرات امرأة متعة، على سبيل المثال، المأخوذة من رواية لاتينيَّة، لاقت رواجًا في ١٧٤٩م كالذي لاقته في ١٩٦٥م[20]، بالإضافة إلى أنَّه قد تمَّ اكتشاف أحجار نرد في التنقيبات التي تمَّت بالقرب من مدينة نينوى[21]. لقد كان

---

[١] مارتن لوثر (Martin Luther): (١٤٨٣ – ١٥٤٦) راهب ألماني، أطلق عصر الإصلاح الديني البروتوستنتي في أوروبا، بعد اعتراضه على صكوك الغفران.

[٢] ميشيل دي مونتين (Michel de Montaigne): (١٥٣٣ – ١٥٩٢) أحد أكثر الكتاب الفرنسيين تأثيرًا في عصر النهضة الفرنسي، ورائد المقالة الحديثة في أوروبا.

[٣] عصر استرداد الملكيَّة الإنجليزيَّة (Restoration) بدأ في ١٦٦٠ عندما استرد تشارلز الثاني الممالك الإنجليزية، والأستكلندية، والأيرلندية بعد فترة خلو العرش التي تلت حروب الثلاث ممالك.

الرجال والنساء يُقامرون في كلِّ العصور. وفي كلِّ عصر وُجِد الخداع بين الرجال كما وُجِد الفساد في الحكومات، ربَّما بانتشار أقلَّ الآن ممَّا كان الوضع عليه في السابق... إنَّ الأعمال الأدبيَّة القصيرة في أوروبا في القرن السادس عشر كانت «تتأوَّه مُستنكرة من الخداع الشامل الذي يقع في صناعة الأغذية وباقي المنتجات»[٢٢]، لم يتَّبع البشر يومًا الوصايا العشر! لقد رأينا آراء فولتير في التاريخ على أنَّها «مجموعة من جرائم، وحماقات، ومصائب» الإنسان[٢٣] وترديد جيبون[١] لهذه الخلاصة من الأحداث.[٢٤]

يجب علينا أن نتذَكَّر أنَّ التاريخ الذي نكتبه (peccavimus)[٢] مختلف إلى حدٍّ كبير عن التاريخ الذي نعيشه؛ المؤرِّخون يكتبون الأحداث الاستثنائيَّة لأنَّها مُثيرة، لأنَّها استثنائيَّة! لو أنَّ كلَّ الأفراد الذين لم يكن لهم من يدوِّن عنهم تفاصيل حياتهم أخذوا حقَّهم في مساحة مناسبة لأعدادهم من كتب المؤرِّخين لأصبح لدينا نسخة أقلَّ إثارةً، لكن أكثر عدلًا للتاريخ وللإنسان. خلف ذلك الوجه الأحمر للحروب والسياسة،

---

[١] إدوارد جيبون (Edward Gibbon): (١٧٣٧ – ١٧٩٤) مؤرخ إنجليزي، صاحب كتاب «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» الذي يعد من أهم وأعظم المراجع في موضوعه.

[٢] كلمة لاتينيَّة تعني «نعترف بخطئنا» أي نعترف بخطئنا في كتابة تاريخ مختلف عن الذي نعيشه.

والتعاسة والفقر، والزنا والطلاق، والقتل والانتحار... هناك ملايين من الأسر المنظَّمة والزيجات المُخلصة والرجال والنساء الودودون والمحبُّون، السعداء والمهمومون بالأطفال، حتَّى في التاريخ المسَجَّل يجب أن نذكِّر أنفسنا أنَّنا نجد الكثير من أفعال الخير والنُّبل - أيضًا - التي يُمكنها أن تجعلنا نسامح الخطايا، لكن لا ننساها. لقد تساوت حسنات الأعمال الخيريَّة مع وحشيَّة الحروب والسُّجون وعادَلَتْها تقريبًا. كم مرَّة، حتى في تناقلنا الودِّيِّ للأحداث نذكر أنَّنا رأينا رجالًا يُساعد بعضهم بعضًا، فيرنلي[١] يوَفِّر احتياجات أبناء دومينيكو سكارلاتي[٢]، أناس مُتعدِّدون يُساعدون هايدن[٣]، وكونت ليتا يدفع ثمن دراسة باخ[٤] في بولونا، جوزيف بلاك[٥]

---

[١] فيرنلي (Farinelli): (١٧٠٥ - ١٧٨٢) مغنِّي أوبرالي يعدُّ من أعظم المغنيين في التاريخ.

[٢] دومينيكو سكارلاتي (Domenico Scarlatti): (١٦٨٥ - ١٧٥٧) مؤلف موسيقي إيطالي وابن المؤلف «ألساندرو سكارلاتي».

[٣] جوزِيفْ هايدِن (Joseph Haydn): (١٧٣٢ - ١٨٠٩) مؤلف موسيقي ولد في مدينة روهو في النمسا، اكتشفت عبقريته وهو ما زال في أول سنين حياته.

[٤] يوهان سباستيان باخ (Johann Sebastian Bach): (١٦٨٥ - ١٧٥٠) عازف ومؤلف موسيقي وملحن باروكي ألماني ميلادية يعتبر أحد أكبر عباقرة الموسيقى الكلاسيكية في التاريخ الغربي.

[٥] جوزيف بلاك (Joseph Black): (١٧٢٨ - ١٧٩٩) فيزيائي وكيميائي أسكتلندي له اكتشافات في الحرارة، كما كان بروفيسور في الطب في جامعة غلاسكو.

يقدِّم الأموال عدَّة مرَّات لجيمس وات[١]، ومايكل بيتسبيرج[٢] يُقرض موتزارت مرارًا وتكرارًا وبكلِّ صبر. من لديه الجرأة أن يكتب عن تاريخ الخير في البشر؟

لذلك، بعد ما استعرضناه، لا يُمكننا أن نحكم أن الِانحلال الأخلاقيَّ المُنتشر في زمننا يمَثِّل انحدارًا، وأنَّه ليس انتقالًا مُؤلمًا أو مُبهجًا من كودٍ أخلاقيٍّ فقد قاعدته الزراعيَّة إلى آخر تصوغه النُّظُم الاجتماعيَّة الجديدة المُستندة على الصناعة حتى يكون هو الطبيعي والأنسب للنظام الاجتماعي الجديد. في أثناء ذلك، يذَكِّرنا ويؤَكِّد لنا التاريخ أنَّ الحضارات تضمحِلُّ في العادة على مهل. لمدَّة ٢٥٠ عامًا بعد أن بدأ اضمحلال أخلاقيٌّ في اليونان على يد السفسطائيِّين، استطاعت الحضارة اليونانيَّة أن تواصل إنتاجها من التحف الفنيَّة والأدبيَّة. أمَّا أخلاق الرومان فلم تبدأ بالتدهور إلَّا بعد فترة قصيرة من مرور اليونانيِّين المهزومين بإيطاليا (١٤٦ قبل الميلاد)، لكنِ استمَرَّت روما في ولادة رجال دولة عظماء وفلاسفة وشعراء

---

[١] جيمس وات (James Watt): (١٧٣٦ – ١٨١٩) مهندس أسكتلندي، ولد في غرينوك من أب كان يعمل في التجارة دون أن يحقق نجاحًا.

[٢] مايكل بيتسبيرج (Michael von Puchberg): (١٧٤١ – ١٨٢٢) تاجر أقمشة عاش في فيينا في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر.

وفنَّانين حتى موت ماركوس أوريليوس[١] (١٨٠ ميلاديًّا). كانت روما في الحضيض سياسيًّا عندما جاء يوليوس قيصر (٦٠ قبل الميلاد)، لكنَّها لم تخضع للبرابرة حتَّى عام ٤٦٥ ميلاديًّا. يا ليتنا نعمِّر كما عمِّرت الإمبراطوريَّة الرومانيَّة!

ربَّما سيتمُّ استعادة الِانضباط في مُجتمعاتنا من خلال التدريبات العسكريَّة التي تتطَلَّبها تحدِّيات الحروب، حرِّيَّة المجموعات تختلف باختلاف الأمن الذي يتحَلَّى به المجتمع ككلٍّ؛ ستتضاءل الفرديَّة الأمريكيَّة والإنجليزيَّة إذا اختفتِ الحماية الجغرافيَّة المُتوَفِّرة لكلٍّ منهما. وربَّما تُعالج الحرِّيَّة الجنسيَّة نفسها من خلال الإفراط الذي تحُثُّه، ربَّما يعيش أبناؤنا الذين لا تحكمهم قيود أخلاقيَّة لليوم الذي يُصبح فيه النظام والِاحتشام صيحة العصر، ربَّما تصبح الملابس أكثر إغراءً من التعَرِّي. مع ذلك، فإنَّ مُعظم حرِّيَّتنا الأخلاقيَّة جيِّدة، من الجيِّد أن يسقط عنا عبْءُ الترهيب الدينيِّ، وأن نستطيع أن نستمتع دون أن نُعاني من تأنيب ضمائرنا بالمتع التي لا تؤذينا ولا تؤذي الآخرين، وأن نشعر بانتعاش الهواء الطلق على أجسادنا المتحرِّرة.

[١] ماركوس أوريليوس (Marcus Aurelius): (١٢١ - ١٨٠) فيلسوف رواقي والإمبراطور الرومانيُّ السادس عشر وخامس الأباطرة الأنطونيِّين الرومان.

الدين والتاريخ

حتَّى المؤرِّخ المُتشكِّك يتكوَّن لديه احترام مُتواضِع للدين؛ لأنَّه يراه فعَّالًا ويلعب دورًا لا يُمكن الِاستعاضة عنه تقريبًا في أيِّ زمان أو أيِّ مكان. إنَّه يجلب للحزين والمُعاني، لكبير السنِّ، والذي فقد أحباءه... راحة غيبيَّة تقدِّرها الملايين من الأرواح، وتراها أغلى من أيِّ مُساعدة أخرى. لقد ساعد الدين الآباء والمعلِّمين في تهذيب الأبناء، ومنح معنًى وإجلالًا حتَّى لأوضع الحالات، وبتعاليمه وشعائره أعطى استقرارًا للمجتمعات بتحويل العقود والمُعاملات الإنسانيَّة إلى عَلاقة لها قدسيَّتها مع الإله، ومنع الفقراء (كما قال نابليون) من قتل الأغنياء؛ لأنَّ التفاوت الطبيعيَّ بين البشر يحكم على الكثير من الرجال بالفقر أو الهزيمة، يُمكن أن يكون بعض الأمل الغيبيِّ هو المخرج البديل الوحيد لليأس، اقضِ على هذا الأمل

لتحتَدِم أمامك حرب طبقيَّة. التصوُّرات عن الجنَّة واليوتوبيا كدلوين في بئر؛ متى نزل أحدهما أقرب لماء البئر ارتفع الآخر، متى انحدر الدين يرتفع النِّداء بالاشتراكيَّة.

لا يبدو في بادئ الأمر أنَّ الدين كان له أيُّ علاقة بالأخلاق! من الواضح (وذلك لأنَّنا فقط نُخمِّن أو نُكرِّر كلام بترونيوس[١] والذي بدوره كان يُكرِّر كلام لوكريتيوس[٢]) أنَّه «الخوف هو أوَّل ما صنع الآلهة» [٢٥]. الخوف من قوى خفيَّة في الأرض وفي الأنهار وفي الشجر وفي الرياح وفي السماء، أصبح الدين عبادة استعطافيَّة لهذه القوى من خلال القرابين والتضحيات والرُّقَى والدعوات! عندما بدأ الكهنة في استخدام هذه المَخاوف والطقوس لدعم الأخلاق والقوانين، حينها فقط أصبح الدين قوَّة مُهمَّة للدولة. لقد أقنع الناس أنَّ الكود الأخلاقيَّ المُتعارَف عليه والقوانين التي تحكمهم جميعها وضعتها الآلهة! لقد صوَّر الإله تحوت، وهو يُعطي القوانين للملك مينا، وإله الآشوريين شمس، وهو يُعطي حمورابي كود بابل، ويهوه إله يهوذا في العصر الحديديِّ وهو يُعطي الوصايا العشر والـ ٦١٣ قاعدة لموسى ليبلِّغها لليهود، وحوريَّة الرومان

[١] بترونيوس (Petronius): (٢٧ – ٦٦) كاتب وسياسيٌّ من روما القديمة.

[٢] لوكريتوس (Lucretius): (٩٩ – ٥٥ ق.م.) فيلسوف وشاعر رومانيٌّ.

المقدَّسة إيجيريا وهي تُعطي نوما بومبيليوس قوانين روما. ادَّعت الطوائف الوثنيَّة والمذاهب المسيحيَّة كلُّها أنَّ حكَّام الأرض مُعيَّنون ومَحميُّون من قِبَل الآلهة. وكلُّ البلاد تقريبًا شاركت بحبٍّ وعرفان أراضيها وعوائدها مع الكهنة.

لقد عبَّر بعض المُتمرِّدين عن شكِّهم أنَّ الدين له أيُّ عَلاقة بالدعوة إلى الأخلاق؛ حيث إنَّ الكثير من المظاهر اللَّاأخلاقيَّة ازدهرت وانتشرت حتَّى في العصور التي هيمن فيها الدين. بالطبع كانت الشهوانيَّة والسُّكْر والجشع والفظاظة والغشُّ والسرقة والعنف جميعًا موجودين في العصور الوسطى. لكن ربَّما كان من الممكن أن يكون الوضع الأخلاقيُّ أسوأ من هذا بكثير بعد خمسمائة عام من الغزو البربريِّ والحروب والخراب الاقتصاديِّ والفوضى السياسيَّة لو لم تحاول تعديله عوامل من انتشار الأخلاقيَّات المسيحيَّة والنصائح الكهنوتيَّة والنماذج المقدَّسة التي قدَّمتها الكنيسة والطقوس المُطمئنَّة والمُوحَّدة. لقد بذلت الكنيسة الكاثوليكيَّة الرومانيَّة الكثير من المجهود لتحارب العبوديَّة والنزاعات العائليَّة وفتنة الصراعات الوطنيَّة، وحاولت أن تمدَّ فترات الهُدنَة والسلام، وأن تستبدل المُحاكمات بالقتال أو التعذيب بمحاكمات أمام محاكم مُعترَف بها. لقد خفَّف الدين العقوبات التي سنَّها

القانون الرومانيُّ أو البربريُّ، ووسَّع دور وتنظيم الأعمال الخيريَّة كثيرًا.

مع أنَّ الكنسية خدمت الدولة، فإنها ادَّعت أنَّها فوق أيِّ دولة، فالأخلاق يجب أن تسمو فوق كلِّ القوى. لقد علَّمت الناس أنَّ الوطنيَّة التي لا يحدُّها انتماء أعلى يُمكن أن تكون أداة للأطماع والجرائم، ونشرت الكنائس المسيحيَّة القانون الأخلاقيِّ نفسه عبر كلِّ السلطات المُختلفة التي دانت بالمسيحيَّة، وبدعواها أنَّها من أصل إلهيٍّ، وأنَّ لها سيطرة روحيَّة وقفت الكنيسة كمحكمة عالميَّة يقف جميع الحكَّام والملوك أمامها للمحاسبة الأخلاقيَّة. اعترف الإمبراطور هنري الرابع[١] بذلك بإذعانه للبابا جريجوري السابع[٢] في كوناسا (١٠٧٧)، وبعدها بقرن رفع إينوسنت الثالث سلطة ومكانة البابويَّة إلى مكان كان يبدو معه أن تصوُّر جريجوري عن الدولة الأخلاقيَّة المثاليَّة تحقَّق أخيرًا.

تحطَّمت الأحلام المَهيبة تحت وطأة القوميَّة وحركات التشكُّك الفكريَّة وهشاشة الإنسان، كان يقوم على الكنيسة رجال أثبتوا في مُعظم الأوقات أنَّهم مُنحازون أو مُبتزُّون أو

[١] ملك إنجلترا ولورد أيرلندا بين عامي ١٣٩٩ و١٤١٣، وهو تاسع ملوك أسرة بلانتاجانت.

[٢] قديس وبابا الكنيسة الكاثوليكيَّة منذ ٢٢ أبريل ١٠٧٣ وحتى وفاته.

يُمكن شراؤهم بالأموال. نمت ثروة وقوَّة فرنسا، واتَّخذت من البابويَّة أداة سياسيَّة لها. أصبح الملوك أقوياء، لدرجة أنَّهم كان يُمكنهم إجبار البابا أن يطمس أوامر السيد المسيح التي تكون في مصلحة البابا على حساب مصلحتهم. طأطأتِ الكنيسة رأسها للفساد، فادَّعت أساطير من التقوى والورع، وزَيَّفت رفاتًا مُقدَّسًا ومعجزات مُريبة، واستفادت لقرون من «منحة قسطنطين» المُزيَّفة التي زعمت توريث غرب أوروبا للبابا سيلفستر الأول (٣١٤ - ٣٥)، ومن «المرسومات البابويَّة الزائفة» (٨٤٢) التي زوَّرت مجموعة من الوثائق لتخلق أصولًا مقدَّسةً قديمة لقدرة البابا[٢٦]. وجَّهت الكنيسة المزيد من جهودها مع الوقت في جعل آرائها وأحكامها أقوى وطأة بدلًا من توجيهها لنشر الأخلاق، إلى أن فضحت محاكم التفتيش ذلك، وكادت أن تقضي على كيان الكنيسة. حتى مع التبشير بالسلام أثارت الكنيسة حروبًا دينيَّة في القرن السادس عشر في فرنسا، وأثارت حرب الثلاثين عامًا في القرن السابع عشر في ألمانيا. ولم تلعب الكنيسة سوى دورٍ ضئيل في تطوُّر الأخلاق الحديثة: دورها في القضاء على العبوديَّة. وسمحت الكنيسة - أيضًا - للفلاسفة أن يتولَّوا قيادة الحركات الإنسانيَّة التي خفَّفت حدَّة شرور وقتنا الحاليِّ.

يُمكن للتاريخ أن يُبرِّر للكنيسة تصديقها أن جموع البشر يرغبون في دين مليء بالغموض والمعجزات والأساطير، بعض التعديلات الطفيفة سُمح بها في الطقوس، وفي العادات الكنسيَّة، وفي سلطة الأسقُف؛ لكن لم تجرؤ الكنيسة أن تغَيِّر التعليمات والعقائد التي يحبُّها المنطق؛ لأنَّ تعديلات كهذه يُمكن أن تصدم وتخرج الملايين من اتِّباعهم للكنيسة وتقطع عنهم الأمل والعزاء المُرتبط بهذه الخيالات! لا يُمكن الجمع بين الفلسفة والدين إلَّا في إقرار الفلاسفة أنَّهم لم يتمَكَّنوا من إيجاد بديل للوظيفة الأخلاقيَّة التي تقوم بها الكنيسة، وفي إقرار الكنيسة بحرِّيَّة الِاعتقاد والفكر.

هل يدعم التاريخ الإيمان بالربِّ؟

إذا لم نكن نقصد بالربِّ القدرة الخلَّاقة للطبيعة وحيويَّتها، ولكن نقصد الذات العالمة المُتسامية الرحيمة، فلا بدَّ أن تكون الإجابة «لا» مُتردِّدة. كما هو الحال مع الأقسام الأخرى من علم البيولوجيِّ؛ فإنَّ التاريخ يظلُّ في مكنونه عبارة عنِ انتقاء طبيعيٍّ للأفراد والمجموعات الأصلح للبقاء في الصراع حيث لا يُوجد أيُّ ميزة للفضيلة، والمصائب تتزايد، والاختبار النهائيُّ هو القدرة على البقاء في الصراع. وأضِف - أيضًا - على جرائم البشر وحروبهم وبشاعتهم الزلازل والعواصف

والأعاصير والأوبئة وموجات تسونامي وما سواها من «أفعال الإله» التي تدمِّر حياة الإنسان والحيوان من وقت إلى آخر، والدلائل في مجملها تشير إلى قضاء أعمى أو غير مُتعاطِف، يعتريه فقط في بعض الأحيان مشاهد غير منظَّمة وعَرَضيَّة، فنقوم نحن بشخصنتها ووصفها بالنظام والعظمة والجمال والتسامي.

لو أنَّ التاريخ يدعم أيَّ ديانة، ستكون هذه الديانة ثنائيَّة كالديانة الزرادشتيَّة أو المانويَّة[١]: روح طيِّبة وروح شرِّيرة تتصارعان للسيطرة على العالم وعلى روح الإنسان! هذه العقائد والعقيدة المسيحيَّة (التي يُمكن اعتبارها عقيدة مانويَّة) يطمئن أتباعها بأنَّ الروح الطيِّبة ستفوز في النهاية؛ لكنَّ مسار التاريخ وتتمَّته المُتوَقَّعة لا تقدِّم أيَّ ضمانات من هذا النوع. الطبيعة والتاريخ لا يتوافقان مع مفهومنا عن الحَسَن والسيِّئ؛ فهما يعرِّفان الجيِّد بأنَّه ما يُمكِّن صاحبه من البقاء، والسيِّئ هو ما يجعله تحت وطأة الآخرين، والعالم ليس لديه أيُّ انحياز للسيِّد المسيح في مُقابل جنكيز خان.

---

[١] المانويَّة ديانة تنسب إلى ماني المولود في عام ٢١٦م في بابل، والذي زعم أنَّ الوحي أتاه وهو في الثانية عشر من عمره، وكان في الأصل مجوسيًّا عارفًا بمذاهب القوم، وكان يقول بنبوَّة المسيح ولا يقول بنبوَّة موسى، فنحى منحًى بين المجوسيَّة والمسيحيَّة.

إنَّ الوعي المُتزايد بضآلة حجم الإنسان مُقارنة بالكون الذي يعيش فيه قد ساعد على تدهور الِاعتقاد الدينيِّ. في المسيحيَّة يُمكن أن نعتبر بداية النهاية عند كوبرنيكس (١٥٤٣)، كانت العمليَّة بطيئة، لكن بحلول عام ١٦١١م كان جون دون[١] ينتحب على كوكب الأرض الذي أصبح مجرَّد «زقاق» من أزقَّة العالم، وأنَّ «الفلسفة الجديدة تدعو للتشكيك في كلِّ شيء». ورغم أنَّ فرانسيس بيكون كان يرفع قبَّعته للأساقفة، فإنه كان يعلن العلم التجريبيَّ دينًا جديدًا للرجل المُتحرِّر. في هذا الجيل بدأ «موت الإله» المعبود المستقلِّ.

تأثير كبير كهذا احتاج إلى العديد من العوامل إلى جانب انتشار العلم التجريبيِّ والمعرفة التاريخيَّة... أولًا، الحركة الإصلاحيَّة البروتستانتيَّة، التي غالبًا ما دافعت عن الأحكام الخاصَّة. ثمَّ تلا ذلك الطوائف البروتستانتيَّة المُتعدِّدة المُتضاربة، التي حاول كلٌّ منها التوفيق بين العقل والكتاب المُقدَّس. ثمَّ تلا ذلك التشكيك الكبير بالكتاب المُقدَّس، وإظهار تلك المكتبة المُذهِلة على أنَّها عمل ناقصٌ لرجال غير مَعصومين. ثمَّ الحركة الربوبيَّة في إنجلترا التي اختزلت الدين إلى إيمان مُبهم بإله لا يُمكن فصله عنِ الطبيعة. ثمَّ التقاء

[١] جون دون (John Donne): واحد من أبرز الشعراء الإنجليز في القرن السابع عشر، وكاتب لامع ما تزال قصائده الغزليَّة وتأمُّلاته الظريفة الساخرة والمريرة حتَّى يومنا تثير الاهتمام.

المسيحيَّة بالأديان الأخرى التي امتلكت الكثير من الأساطير التي ظهر مُعظمها قبل المسيحيَّة، المُشابهة للقصص التي يُفترض أنَّها حقيقيَّة، ووقعت قبل ظهور المسيحيَّة، وتُكوِّن جزءًا أساسيًّا من العقيدة المَوروثة. ثمَّ فضْح البروتستانت للمعجزات الكاثوليكيَّة، وفضْح الربوبيِّين لمُعجزات الكتاب المُقدَّس، وفضْح الفساد بصورة عامَّةٍ ومحاكم التفتيش والمَجازر في تاريخ الأديان. ثمَّ استبدل بالزراعة – التي كانت تدفع الناس للإيمان بالبعث السنوي للحياة وغموض عمليَّة النموِّ – الصناعة، التي بدأت ترفع صوتها بصلوات مُمَيْكنة وتدفع للإيمان بعالم مُمَيْكن! أضِف إلى ذلك التقدُّم القويَّ للحركة التشكيكيَّة على أصْعِدة أكاديميَّة وعلميَّة كما في حالة بيير بايل[١] والفلسفات الوجوديَّة كما حدث على يد سبينوزا؛ والهجوم الهائل من حركة التنوير الفرنسيَّة على المسيحيَّة؛ واحتجاج الثوَّار على الكنيسة أثناء الثورة الفرنسيَّة. أضف إلى كلِّ هذا، المذابح المُجْحِفة التي تمَّت في وقتنا الحالي. وأخيرًا التقدُّمات العلميَّة والتكنولوجيَّة المُذهلة التي أعطت الإنسان أملًا في أن يمتلك القدرة المُطلقة كما هدَّدته بالتدمير، وجعلته يتحدَّى الأوامر الإلهيَّة القادمة من السماء.

---

[١] بيير بايل (Pierre Bayle): (١٦٤٧ – ١٧٠٦) شخصيَّة عامَّة وفيلسوف الشكِّيَّة، وممَثِّل حركة التنوير الفرنسيَّة، كان أستاذًا للفلسفة بكلِّيَّة سيدان وجامعة روتردام.

بطريقة ما قامت المسيحيَّة بإمداد تابعيها بأسباب نهايتها عندما نمَّت بداخلهم حسًّا أخلاقيًّا لم يَعُد بعد ذلك قادرًا أن يتحَمَّل إلهًا مُنتقمًا على الصورة التي يتمُّ عرضها دائمًا في الديانات القديمة! واختفت فكرة الجحيم من أفكار المُتعلِّمين، حتى ما يُعرض منها على منابر الوعظ. أصبحت المشيخيَّة[١] تشعر بالعار من إقرار إيمان ويستمنستر[٢]، الذي جعلهم يتعهَّدون بالإيمان بإله خلق ملايين الرجال والنساء وهو يعلم أنَّه سيُعذِّبهم في النار في نهاية المطاف، بغضِّ النظر عمَّا فعلوه من خير وشر! لقد صُدِم المسيحيُّون المُتعلِّمون الذين زاروا كنيسة سيستينا بلوحة لمايكل أنجلو يظهر فيها المسيح وهو يقذف المسيئين إليه بلا أيِّ عناية في جحيم لن تنطفئ نارُها أبدًا! هل كان هذا هو «المسيح الطيِّب الوديع الدَّمِث» الذي أَلْهَمَ شبابنا؟! وكما أنَّ التطوُّر الأخلاقيَّ لليونانيِّين أضعف إيمانهم بالآلهة التي تثير الشجارات وترتكب الزنا في الأولمب (فقد كتب أفلاطون أنَّ «نسبة مُعيَّنة من الناس لا تُؤمِن على الإطلاق بوجود الآلهة»[٢٧]). فإنَّ تطوُّر الأخلاق المسيحيَّة أدَّى إلى تآكُل الديانة المسيحيَّة ببطءٍ. لقد قتل المسيح الإله!

---

[١] المشيخية (Presbyterianism): تُشير إلى عدَّة كنائس مسيحيَّة تتبع تعاليم العالم اللَّاهوتيِّ البروتستانتيِّ جون كالفين، وتنظم تحت حكم مجالس شيوخ بشكل ديمقراطيٍّ.

[٢] إقرار إيمان وستمنستر (Westminster Confession of Faith): يُعتبر مرجعًا مهماً للحقائق الكتابيَّة، تمَّ إصداره في عام ١٦٤٦م، ويتَّسمُ بالغنى اللَّاهوتيِّ، ويُقدِّمُ شرحًا كتابيًّا مُنظَّمًا لأساسيَّات الإيمان المسيحيِّ.

إنَّ استبدال المسيحيَّة بالمؤسَّسات العلمانيَّة هو نتيجةٌ تراكميَّةٌ وخطيرةٌ للثورة الصناعيَّة... أن تُحاول الدول الِاستغناء عنِ الدعم الدينيِّ واحدة من أهم التجارب التي تحيِّر عقولنا وتنغِّص علينا طرقنا في هذا العصر. القوانين التي كانت تُقدَّم على أنَّها قوانين سنَّها الإله على الملوك الذين عيَّنهم، أصبحت الآن وبشكل واضح للجميع أوامر غير محكمة من رجال غير معصومين من الخطأ! التعليم الذي كان يومًا ما مقصورًا على الكهنة المدعومين بإلهام من الإله، أصبح الآن مُهمَّة الرجال والنساء العاديِّين الذين ليس لهم رهبة ولا سلطة المؤسَّسة الدينيَّة، مُعتمدين على العقل والإقناع وحدهما لإقناع الشباب المُعترضين الذين لا يخافون إلَّا قوات الشرطة، وربَّما يمنعهم عدم اكتراثهم لغيرها أن يتعلَّموا استخدام عقولهم أو الِاكتفاء بالحُجَج المُقنعة من الأساس! الجامعات التي كانت يومًا حليفة للكنيسة، أصبحت اليوم تحت أسر رجال الأعمال والعلماء! الدعاية التي تنشر أفكارًا مثل الوطنيَّة والرأسماليَّة والِاشتراكيَّة، تنجح في زرع عقيدة وتصوُّر أخلاقيٍّ يوازيان العقائد الغيبيَّة القديمة! الأيَّام المُقدَّسة تفسح مكانها لعطلات العمل التي لا تحمل معنًى دينيًّا خاصًّا في ذاتها، والمسارح السينمائيَّة مُمْتلئة حتَّى في يوم الأحد، وحتَّى في يوم الأحد

الكنائس بالكاد يمتلئ نصفها! صار الدين في العائلات الأنجلو ساكسونية تقاليد اجتماعيَّة ومُمَارسات وقائيَّة، بينما تزدهر الكاثوليكيَّة في العائلات الأمريكيَّة، أمَّا في الطبقات العليا والوسطى في فرنسا وإيطاليا فيُعتبر الدين «صفة جنسيَّة فرعيَّة لدى الإناث»! ألف علامة تشير إلى أنَّ المسيحيَّة تمُرُّ بنفس التدهور الذي مرَّ به الدين اليونانيُّ القديم عندما انتشر السفسطائيُّون وبدأ التنوير اليونانيُّ.

الكاثوليكيَّة تُحافظ على بقائها؛ لأنَّها تُخاطب الخيال والأمل والحسَّ، ولأنَّ الأساطير تخَفِّف وتنير حياة الفقراء، ولأنَّ مطالبة المُخلصين لها أن يزيدوا نسلهم يستعيد لها ببطء بعضًا من الذين خسرتهم لحركات الإصلاح. لقد ضحَّت الكاثوليكيَّة بإخلاص الأوساط الفكريَّة لها، وهي تُعاني من مشاكل مُتزايدة بسبب اتصالها بتعليم وأدب علمانيِّين، لكنَّها تفوز بأتباع جُدُد من أرواح مُنهَكة من صعوبة الوصول لليقين بالعقل والحُجَج المنطقيَّة، ومن آخرين يطمحون أن تكون الكنيسة منبت اضطرابات داخليَّة ومنبعًا للموجة الاشتراكيَّة.

لو أنَّ حربًا عظيمةً أخرى ستدَمِّر الحضارة الغربيَّة، فستكون الكنيسة هي الأمل الوحيد لرفع الدمار الذي سيلحق بالمدن وانتشار الفقر والخزي الذي سيلحق بالعالم، وهي الوحيدة

القادرة على إرشاد الذين سينجون من الكارثة، كما كان الحال في ٤٧٦ ميلاديًّا.

أحد الدروس المُهمَّة للتاريخ أنَّ الدين له العديد من الأرواح، وعادة ما يُبعث بعد موته. كم تكرَّر في الماضي أن مات الإله والدين ثمَّ بُعثا من جديد! إخناتون استخدم كلَّ قوى الفراعنة ليقتل دين آمون، لكن في خلال سنة واحدة من موت إخناتون تمَّ استعادة دين آمون[٢٨]. انتشر الإلحاد بين الشباب البوذي، وبوذا نفسه أرسى ديانة ليس لها إله؛ لكن بعد موته تطوَّرت البوذيَّة إلى ديانة مُعقَّدة لها آلهتها، وقساوستها وجحيمها[٢٩]. الفلسفة والعلم والتعليم أدَّوا جميعًا إلى انحدار أعداد المؤمنين بالآلهة الرومانيَّة، لكنَّ الفراغ الذي نشأ عن ذلك اجتذب الكثير من المُعتقدات الأخرى الغنيَّة بأساطير عن الحياة بعد الموت. في باريس عام ١٧٩٣م، ونتيجة خطئهم في فهم أعمال فولتير، أنشأ ايبير[١] وشوميت[٢] العبادة الإلحاديَّة لإلهة المنطق؛ بعد ذلك بسنة، وخوفًا من الفوضى التي ألهمها روسو، قام روبسبير بإقامة عبادة الذات العليا.

---

[١] جاك-رينيه ايبير (Jacques-René Hébert): (١٧٥٧ - ١٧٩٤) من أشهر الصحافيِّين والثوريِّين الفرنسيِّين، أقبل على نُصرة الثورة الفرنسيَّة بلسانه وقلمه منذ بدايتها.

[٢] شوميت (Pierre Gaspard Chaumette): (١٧٦٣ - ١٧٩٤) سياسيٌّ فرنسيٌّ في فترة الثورة تزَعَّم كومونة باريس ولعب دورًا مهمًّا في إقامة عهد الإرهاب.

وفي عام ١٨٠١م قام نابليون بتوقيع مُعاهدة مع البابا بيوس السابع ليُعيد الكنيسة الكاثوليكيَّة إلى فرنسا، في خطوة تُظهر وعيًا جيدًا بمجريات التاريخ. اختفى كفر القرن الثامن عشر في إنجلترا مع التسويات الفيكتوريَّة مع الكنيسة: وافقت الدولة أن تدعم الكنيسة الأنجليكيَّة، والطبقات المُتعلِّمة ستخَفِّف من تشكُّكها في مُقابل إذعان ضمنيٍّ من الكنيسة للدولة، وأن يكون القسُّ - وبكل تواضُع - في خدمة الحاكم. في أمريكا، عقلانيَّة الآباء المؤسِّسين سمحت بالتجديد الديني في القرن التاسع عشر.

التعَنُّت الدينيُّ وإنكار الدين كلِّيَّةً يتبادلان الأماكن في تفاعل مشترك دائم بينهما على مدار التاريخ. فعلى العموم يحكم الدين والتعَنُّت عندما تكون سلطة القانون والدولة ضعيفة، ولا تستطيع أن تتحمَّل عبْءَ تماسُك المجتمع وترابطه، وينتشر التشكيك والإلحاد في الفترات التي يكون فيها سيادة القانون وقوَّة الحكومة تسمحان بتهميش دور الكنيسة والعائلة والقيم الأخلاقيَّة دون أن يهَدِّد ذلك استقرار وثبات المجتمع والدولة. في زمننا هذا اتَّحدَت قوة الدولة وسيادة القانون مع مجموعة العوامل التي ذكرتها منذ قليل، لتسمح بتراخي دور الإيمان، وتسمح للإلحاد وإنكار الأديان أن يأخذ دوره في التفاعل. من المحتمل أن يجلب تخطِّينا للحدود تفاعُلًا آخر،

الِانفلات الأخلاقيُّ ربَّما يوَلِّد إعادة انبعاث دينيٍّ، وربَّما يقوم المُلحدون مُجدَّدًا (كما حدث في فرنسا بعد هزيمة ١٨٧٠م) بإرسال أبنائهم إلى الكنائس الكاثوليكيَّة ليكسبوهم الِانضباط الذي توَرِّثه العقيدة الدينيَّة. أذكر هنا مُناشدة اللاأدري رينان[١] في ١٨٦٦م:

دعونا نستمتع بحرِّيَّة أبناء الربِّ، ولكن دعونا نأخذ حذرنا خشية أن نصبح شركاء في نقص الفضيلة التي ستهَدِّد المجتمع إذا ضعفت المسيحيَّة. ماذا عسانا نفعل بدونها؟... إن رغِبَت العقلانيَّة أن تحكم العالم دون النظر إلى الِاحتياجات الدينيَّة للروح، فتجربة الثورة الفرنسيَّة موجودة لتعَلِّمنا تَبِعات خطأ فادح مثل هذا[٣٠].

هل يدعم التاريخ استنتاج رينان أنَّ الدين ضروريٌّ لحفظ الأخلاق، وأنَّ الأخلاق الفطريَّة وحدها دون وازع دينيٍّ أضعف من أن تُقاوم الوحشيَّة التي تتربَّص بالحضارة وتظهر في أحلامنا وجرائمنا وحروبنا؟ جوزيف دي ميستر[٢] يُجيب على

---

[١] أرنست رينو (Ernest Renan): (١٨٢٣ - ١٨٩٢) مؤرِّخ وكاتب فرنسيٌّ اشتهر بترجمته ليسوع التي دعا فيها إلى نقد المصادر الدينيَّة نقدًا تاريخيًّا علميًّا وإلى التمييز بين العناصر التاريخيَّة والعناصر الأسطوريَّة الموجودة في الكتاب المُقدَّس.

[٢] جوزيف دي ميستر (Joseph de Maistre): (١٧٥٣ - ١٨٢١) فيلسوف وكاتب ورجل قانون ودبلوماسيٌّ سافوي، دافع عن الحفاظ على الطبقيَّة والنظام الملكيِّ في فترة الثورة الفرنسيَّة.

هذا السؤال قائلًا: «أنا لا أعرف ما يُمكن أن يكون في قلوب الأوغاد؛ لكنَّني أعرف ما يُوجد في عقول الرجال الصادقين... وهو مُروِّع»[٣١]. لا يُوجد مثال مُعتبر واحد في التاريخ قبل زماننا لمجتمع يُحافظ على حياة أخلاقيَّة ناجحة بدون دعامة دينيَّة، لقد فصلت فرنسا والولايات المُتَّحدة وبعض الأمم الأخرى الحكومة تمامًا عن أيِّ كنيسة، لكنَّهم احتفظوا بدور الدين في الحفاظ على النظام الاجتماعيِّ. بعض الدول الاشتراكيَّة القليلة فقط هي التي لم تكتفِ بفصل نفسها عن الدين، ولكنَّها - أيضًا - تنكَّرت لمُساعدتها، وربَّما يكون النجاح الظاهريُّ والمؤقَّت للتجربة الروسيَّة كان بسبب ارتِضائها الاشتراكيَّة كدين (أو كما سيقول بعض المُتشكِّكون: أفيون) الشعب، واستبدالهم الاشتراكيَّة بالكنيسة كبائع السعادة والأمل. إذا فشل النظام الاشتراكيُّ في جهوده للقضاء على الفقر النسبيِّ بين الحشود يُمكن أن يفقد هذا الدين الجديد توَهُّجه وفاعليَّته، وسينتهي الحال بالدولة أن تسترجع المُعتقدات الغيبيَّة التي تُساعد في تهدئة الِاستياء. «سيظلُّ هناك آلهة ما دام الفقر موجودًا»[٣٢].

الاقتصاد والتاريخ

التاريخ – في نظر كارل ماركس – ما هو إلَّا استعراض للصراع الاقتصاديِّ يأخذ مَجراه، صراع بين الأفراد والمجموعات والطبقات والدول، على الطعام والوقود والموادِّ التي يُمكن تصنيعها وعلى الهَيْمنة الِاقتصاديَّة بوجهٍ عامٍ. إنَّ الأنظمة السياسيَّة والمؤسَّسات الدينيَّة والإبداعات الثقافيَّة كلَّها لها جذورها من الواقع الاقتصاديِّ؛ فالثورة الصناعيَّة على سبيل المثال أوجدت معها الديمقراطيَّة، والحركة النِّسويَّة، وتنظيم النسل، والاشتراكيَّة، كما أدَّت إلى ضعف مكانة الأديان واضمِحْلال القيم الأخلاقيَّة، وتحرير الأعمال الأدبيَّة منَ اعتمادها على رعاية الطبقة الأرستقراطيَّة، وحلول الواقعيَّة محلَّ الرومانسيَّة في الأعمال الروائيَّة والأدبيَّة، وظهور فكرة تحليل التاريخ من منظور اقتصاديٍّ. أبطال تلك الحركات التي

نشأت كانوا نتائج لا أسبابًا؛ فأجاممنون[١] وأخيل وهيكتور لم يكن ليسمع عنهم أحد لولا أنَّ اليونانيِّين سعوا للسيطرة التجاريَّة على منطقة الدردنيل، وكان الطموح الاقتصاديُّ لا وجه هيلين[٢] «الأجمل من هواء المساء العليل تحت سماء مليئة بالنجوم» هو ما حرَّك آلاف السفن إلى اليوم[٣]؛ لقدِ استطاع اليونانيُّون بدهائهم ومكرهم أن يواروا رغباتهم الاقتصاديَّة السافِرة بجُمَل وتعبيرات برَّاقة.

تُسَلِّط الترجمة الاقتصاديَّة للتاريخ بلا شكٍّ الضوء على كثير من زواياه. فأموال تحالف الديلي[٤] بَنَت البارثينون[٥]، وخزينة مصر في عهد كليوباترا أعادت الحياة إلى إيطاليا

---

[١] أجَامِمْنُون (Agamemnon): شقيق الملك مينلاوس (Menelaus) ملك إسبرطة، وهو الذي قاد الحملة التي ذهبت إلى طروادة لاستعادة هيلين زوجة الملك مينلاوس التي هربت إلى طروادة مع بارس، في القصَّة التي اشتهرت فيما بعد بالحصان الخشبيِّ المعروف بحصان طروادة.

[٢] هيلين (Helen): في الميثولوجيا الإغريقيَّة هي أجمل نساء الأرض قاطبة، هربت مع باريس إلى طروادة مُتسبِّبة باندلاع حرب لمُدَّة عشر سنوات.

[٣] مدينة إغريقيَّة قديمة.

[٤] الحلف الديلي (Delian Confederacy): هو رابطة من الدول المدن اليونانيَّة، تأسَّست في عام ٤٧٨ قبل الميلاد، بلغ عدد أعضائها ما بين ١٥٠إلى ٣٣٠ مدينة تحت قيادة أثينا، وكان هدفها مواصلة القتال ضد الإمبراطورية الفارسية.

[٥] البارثينون (Parthenon): معبد إغريقيٌّ في مدينة أثينا، بُني على جبل الأكروبولس، ويُعتبر من أفضل نماذج العمارة الإغريقية القديمة.

المُنهكة في عهد أغسطس، ووَفَّرت راتبًا سنويًّا لفيرجل[١] ومزرعةٍ لهوراس[٢]. الحملات الصليبيَّة مثلها مثل الحروب بين الرومان والفرس، كانت مُحاولة لسيطرة الغرب على طرق التجارة المُتَّجهة إلى الشرق، واكتشاف القارَّة الأمريكيَّة كان نتيجةً لفشل تلك الحملات. عائلة ميديشي[٣] بمهاراتهم المصرفيَّة دعموا الحركة التنويريَّة في مدينة فلورنسا، ووَفَّرت التجارة والصناعة في نورمبرج الظروف المُمْكنة لنشأة آلبرخت دورر[٤]، لم تقم الثورة الفرنسيَّة لأنَّ فولتير كتب كتابات هجائيَّة مُلهمة ولا لجمال وعاطفيَّة رومانسيَّة أعمال روسو؛ لكنَّها قامت لأنَّ الطبقة الوسطى تمَكَّنت من الوصول لمواضع القيادة الاقتصاديَّة، ولاحتياجهم للحرِّيَّة التشريعيَّة التي تخدم مَشاريعهم وتجارتهم، ولأنَّهم رغبوا في القبول الاجتماعيِّ والسلطة السياسيَّة.

---

[١] فرجيل (Virgil): (٧٠ ق.م. – ١٩ ق.م.) شاعر رومانيٌّ، اعتبرت إحدى قصائده التي نشرت بعد وفاته بسنتين إحدى القصائد الوطنية.

[٢] هوراس (Horace): شاعر غنائيٌّ وناقد أدبيٌّ رومانيٌّ، لشعره تأثير على الشعر الإنجليزي.

[٣] عائلة ميديشي (House of Medici): أحد أشهر عائلات فلورنسا، والتي لعِبت الدور الأهم في تاريخها اقتصاديًّا وسياسيًّا وثقافيًّا بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر.

[٤] آلْبِرْخْت دورِر (Albrecht Dürer): (١٤٧١ – ١٥٢٨) رسَّام ألمانيٌّ عاش في نورمبرغ، أظهر مَوهبته في فنِّ التصوير الزيتي، كما أنجز العديد من الرسومات التخطيطية وبعض الرسومات المائية.

لم يدَّعِ ماركس أنَّ الأفراد كانوا دائمًا مَدفوعين بنزعات اقتصاديَّة، لقد كان شديد البعد من أن يظن أنَّ أسبابًا واعتبارات ماديَّة أوجدت رومانسيَّة أبيلار، أو كتب التعاليم البوذيَّة، أو قصائد جون كيتس. لكنَّه ربَّما أساء تقدير حجم الدور الذي تلعبه العوامل غير الاقتصاديَّة في دوافع ومُحرِّكات الكتل الضخمة من الناس: الدور الذي تلعبه العقيدة الدينيَّة مثلًا في جيوش المسلمين أو الإسبان، أو دور العصبيَّة الوطنيَّة في كتائب هتلر أو كتائب الكاميكازي[١] اليابانيَّة، أو دور غضب الجماهير الذي يشتعل ذاتيًّا ويُغذِّي نفسه كما في أحداث الشَّغَب التي اندلعت في جوردن في لندن بين ٢ و٨ يونيو سنة ١٧٨٠م[٢]، أو مذبحة سبتمبر التي استمَرَّت من ٢ إلى ٧ من الشهر المذكور في باريس عام ١٧٩٢م[٣]. في مثل هذه الحالات دوافع القادة (التي عادة ما تكون خفيَّة) يُمكن أن تكون ذات طبيعة اقتصاديَّة، لكنَّ النتيجة يُحدِّدها إلى حدٍّ بعيد عُنف رغبة الحشود وما يتَّقِد في أنفسهم. في العديد من الحالات

[١] كاميكازي كامي باليابانية تعني «الإله» أو «الربَّ»، وكازي تعني «رياح»، تُستخدم الكلمة للإشارة إلى هجمات انتحارية قام بها الطيارون اليابانيون ضد سفن الحلفاء في الجزء الأخير من حملة المحيط الهادي إبان الحرب العالمية الثانية.

[٢] احتجاج ضخم ضدَّ الكاثوليك في لندن ضدَّ قانون البابويِّين لعام ١٧٧٨م، والذي كان يهدف إلى الحد من التمييز الرسمي ضد الكاثوليك البريطانيين.

[٣] مجموعة من جرائم القتل حدثت في باريس والمدن المُجاورة في التاريخ أثناء الثورة الفرنسيَّة، منهم أكثر من ١٠٠٠ سجين قتلوا في أقل من ٢٠ ساعة.

كان من الواضح أنَّ القوَّة العسكريَّة هي سبب لا نتيجة بعض العمليَّات الاقتصاديَّة، كما كان الحال عندما استولى البلاشفة على روسيا في ١٩١٧م، أو في حالة الِانقلابات العسكريَّة التي غيَّرت تاريخ أمريكا الجنوبيَّة. من يُمكنه أن يدَّعي أن غزو المغرب الإسلاميِّ لإسبانيا، أو الغزو المَغولي لغرب آسيا، أو أنَّ سيطرة المَغول على الهند، كانت نتيجة لقوَّة اقتصاديَّة؟ في هذه الحالات أثبت الفقراء أنَّهم أقوى من الأغنياء، والقوَّة العسكريَّة أكسبت المُنتصر سطوة سياسيَّة والتي بدورها خلقت سيطرة اقتصاديَّة. كان يُمكن للقادة العسكريِّين أن يكتبوا ترجمة عسكريَّة للتاريخ.

بأخذ هذه الاحتياطات في الاعتبار، يُمكننا أن نستقي من التحليل التاريخيِّ للماضي عددًا لا حصر له من التعليمات، يُمكننا ملاحظة أنَّ الغزاة البرابرة وجدوا روما في حالة ضعف؛ نظرًا لأنَّ الكتلة السكَّانيَّة من المُزارعين التي كانت في الماضي تمدُّ الفيالق بالجنود الأوفياء والجسورين ليُحاربوا من أجل أراضيهم أصبحت عبيدًا يحرثون ويزرعون أراضيَ أسيادهم بلا كلَل، سواء كان مالكًا واحدًا أو عددًا قليلًا من المُلَّاك. في أيَّامنا هذه، تدفع عدم قدرة المُزارع الصغيرة أن تستخدم أحدث الأجهزة المتاحة حتى توَفِّر إنتاجيَّة مَعقولة إلى أن

تصبح الزراعة جزءًا من نظام أوسع نطاقًا، سواء كان رأسماليًّا أو اشتراكيًّا. قيل في وقت ما: إنَّ «الحضارة تنمو على حساب أولئك الذين يحملون الفؤوس»[٣٣]. لكن الآن لم يعد أحدٌ يحمل فأسًا! أصبح حملة الفؤوس الآن تروسًا في جرَّار زراعيٍّ أو عجلة في آلة جمع الحبوب. الزراعة تتحَوَّل إلى لون من ألوان الصناعة، وعلى المُزارع أن يختار قريبًا إمَّا أن يعمل لدى أصحاب رؤوس الأموال أو لدى الدولة.

وعلى الناحية الأخرى يُخبرنا التاريخ أنَّ «الرجال الذين يستطيعون إدارة الرجال يُديرون أولئك الذين لا يستطيعون إلَّا إدارة الأشياء، أمَّا الذين يستطيعون أن يُديروا الأموال يُديرون كلَّ شيء»[٣٤]. لذلك... فرجال المصارف الذين يُراقبون حركة الزراعة والصناعة والتجارة، الذين يتحَكَّمون ويُوَجِّهون حركة رأس المال، ويُضاعفون أموالنا ويستثمرونها، ويتحَكَّمون في القروض والفوائد والمشاريع، ويتحَمَّلون مخاطر استثماريَّة عالية من أجل أرباح أكبر، هؤلاء يرتفعون إلى قمَّة الهرم الاقتصاديِّ. من عائلة المديشي في فلورنسا إلى عائلة الفوجر في أوجسبرج وعائلة روتشيلد في باريس ولندن وعائلة مورجان في نيويورك، جلس المصرفيُّون في مجالس الوزراء وموَّلوا الحروب والحركات الدينيَّة، كما أشعلوا الثورات في بعض

الأحيان. قد يكون أحد أسرارهم للسلطة أنَّهم بدراستهم لتذبذب الأسعار يعلمون أنَّ تقدُّم التاريخ دائمًا ما يُصاحبه تضَخُّم في الأسعار، وأنَّه ليس من الحكمة إطلاقًا أن تكون مُدَّخراتك أموالًا.

تقتضي خبرة الماضي أنَّ كلَّ الأنظمة الاقتصاديَّة يجب أن تعتمد عاجلًا أو آجلًا على شكل من أشكال الحوافز الربحيَّة لتُحرِّك الأفراد والمجموعات وتُثير فيهم الرغبة في الإنتاج. أثبتت البدائل الأخرى مثل الِاستعباد أو الرقابة الشرطيَّة أو الحماس لفكرة أو أيدولوجيَّة مُعيَّنة عدم كفاءتها، أو غلو ثمنها، أو عدم قدرتها على دفع الإنتاج إلَّا لفترة مُؤقَّتة. في العادة يُحكم على الناس في أوقات السِّلم بقدرتهم على الإنتاج، بينما يتدرَّجون في منازلهم في وقت الحرب حسب قدرتهم على التدمير.

لأنَّ القدرات العمليَّة تختلف من شخص إلى آخر، فغالبيَّة هذه القدرات تتجَمَّع في عدد قليل من أفراد المجتمع تقريبًا في جميع المجتمعات. تمَرْكز الثروة نتيجة طبيعيَّة لهذا التمَرْكز المُقابل للقدرات، وعادةً ما يتكرَّر في سياق التاريخ. يتغَيَّر مُعدَّل هذا التمَرْكز بتغَيُّر الحرِّيَّة الاقتصاديَّة التي يسمح بها القانون والمسموح بها أخلاقيًّا (مع ثبات باقي العوامل)،

فيُمكن أن يؤخِّر نظام سياسيٌّ استبداديٌّ عمليَّة تركيز القوَّة الاقتصاديَّة هذه، بينما تعَجِّلها الديمقراطيَّة؛ لأنَّها توَفِّر أكبر قدر مُمْكن من الحرِّيَّة. طغت آلاف الفروق الجسدية والذهنيَّة والاقتصاديَّة على المُساواة النسبيَّة التي كانت بين الأمريكيِّين قبل ١٧٧٦م، وأصبحت الفجوة بين الأكثر غنًى والأكثر فقرًا بين الأمريكيِّين أكبر منها في أيِّ وقت مضى منذ الإمبراطوريَّة الرومانيَّة البلوتوقراطيَّة[١]. في المجتمعات التقَدُّميَّة قد يصل تركيز السلطة إلى نقطة يتفوَّق فيها العدد الضخم للفقراء وقدرة هذا العدد على إحداث التغيير على قوة السلطة التي يمتلكها الأغنياء؛ في تلك اللحظة يولِّد هذا الاتزان غير المُستقِرِّ موقفًا حرجًا، عادة ما كان يتعامل معه التاريخ إما بسَنِّ قوانين تعيد توزيع الثروة، أو بثورة تعيد توزيع الفقر.

في أثينا عام ٥٩٤ قبل الميلاد، وفقًا لفلوطرخس[٢]، «وصل التفاوت بين الغنيِّ والفقير إلى ذروته، لذلك أصبح الوضع خطيرًا في المدينة، ولا يُوجد أيُّ طريقة لتخليص المدينة من هذا الوضع... إلَّا القوَّة المُستبدة»[٣٥]. عندما وجد

---

[١] البلوتوقراطيَّة أو حكم الأثرياء: هي أحد أشكال الحكم تكون فيها الطبقة الحاكمة ممَيَّزة بالثراء. في البلوتوقراطيَّة، درجة التفاوت الاقتصاديِّ تكون عالية، بينما مستوى الحراك الاجتماعيِّ يكون مُنخفضًا.

[٢] فلوطرخس (Plutarch): (٤٥ – ١٢٥) فيلسوف ومؤرِّخ يونانيٌّ.

الفقراء حالهم لا يزداد إلَّا سوءًا كلَّ عام - الحكومة في أيدي أسيادهم، والمحاكم الفاسدة تحكم في كلِّ القضايا ضدَّهم وتُصفِّي كلَّ النزاعات في غير مصلحتهم - بدأوا يتحَدَّثون عن ثورة عنيفة! قرَّر الأغنياء في غضب من التحَدِّي الذي يهَدِّد أملاكهم أن يدافعوا عنها بالقوَّة! في نهاية الأمر احتاج حلُّ هذه الأزمة حكمةً في التصَرُّف وحُسن تدبير؛ وهو ما قام به سولون، رجل الأعمال ذو النسب الأرستقراطيِّ الذي ضمنت بعض الظروف المُعتدلة صعوده إلى السلطة التشريعيَّة العليا.

قام سولون بخفض قيمة العملة، وبالتالي خفَّف العِبْء عن المَدينين (على الرغم من أنَّه هو شخصيًّا كان من الدائنين)، وخفض كلَّ الديون الشخصيَّة، وأنهى عقوبة السجن في حالة عدم الوفاء بالدَّيْن، وألغى المُستحقَّات الضريبيَّة المُتقادِمة والفوائد العقاريَّة، وجعل ضرائب الدخل تدريجيَّة بحسب حجم الدخل، بحيث يدفع الأغنياء اثني عشر ضعف ما يدفعه الفقراء، أعاد تشكيل المحاكم بحيث تكون أُسُسها أكثر شعبيَّة، وجعل رعاية وتعليم أبناء المحاربين الذين قُتلوا في معارك من أجل أثينا على نفقة الحكومة. احتجَّ الأغنياء على إجراءاته القاسية، ووصفوها بأنَّها مُصادرة صريحة لأملاكهم، ولام عليه الراديكاليُّون أنَّه لم يُعِد تقسيم الأراضي، لكن بعد جيل

واحد فقط كان الجميع تقريبًا مُتَّفقين أنَّ إصلاحاته أنقذت أثينا منَ اندلاع ثورة كانت وشيكة[٣٦].

مجلس الشيوخ الرومانيُّ، الشهير بحكمته، تبنَّى سياسة غير مُتسامحة عندما بدأ تركيز الثروة يصل في إيطاليا إلى نقطة حرجة، وكانت النتيجة هي مائة عام من الصراع الطبقيِّ والحرب الأهليَّة. اقترح تيبريوس جراكوس، أحد الأرستقراطيِّين الذين تمَّ اختيارهم لتمثيل مصالح العامَّة، أن يتمَّ إعادة توزيع الثروة عن طريق وضع حدٍّ لامتلاك الأراضي، وهو ٣٣٣ فدانًا لكلِّ شخص، وتوزيع الفائض من هذه الأراضي على طبقة العمالة الغاضبة الموجودة في العاصمة. رفض مجلس الشيوخ هذا الِاقتراح واعتبروه مُصادرة للأملاك الخاصَّة، لكنَّه استمال العامَّة قائلًا لهم: «إنَّكم تُحاربون وتموتون ليمتلك غيركم الثروة ويتمَتَّعوا بالرخاء، ومع ذلك لا يوجد موضع قدم تمتلكونه أنتم!»[٣٧]. وقام بالإعداد يوم الانتخابات ليتمَّ إعادة ترشيحه لتمثيل مصالح العامَّة في مجلس الشيوخ، على الرغم من أنَّ القانون الرومانيَّ لم يكن يسمح له بذلك، إلى أن تمَّ ذبحه في ذلك اليوم في أعمال الشغب التي اندلعت (١٣٣ قبل الميلاد). ثمَّ حاول من بعده أخوه كايوس أن يُكمل الدفاع عن قضيَّته، إلَّا أنَّه لم يُفلح في منع اندلاع أعمال العنف مرةً

أخرى، فأمر خادمه أن يقتله، ففعل خادمه ذلك، ثمَّ قام بقتل نفسه (١٢١ قبل الميلاد)، وتمَّ الحكم على ثلاثة آلاف من أتباع كايوس بالإعدام بمرسوم من مجلس الشيوخ، ثمَّ أصبح ماريوس زعيمًا لطبقة الدهماء[١]، لكنَّه انسحب عندما أوشكت الحركة الشعبيَّة أن تُقيم ثورة.

كاتلين[٢] أعدَّ جيشًا ثوريًّا من «المعدمين البائسين»، عازمًا أن يقضي على كلِّ الديون، لقد كان مأخوذًا جدًّا بأعمال شيشرون الغاضبة، ومات في حرب ضدَّ الدولة الرومانيَّة عام ٦٢ قبل الميلاد. حاول يوليوس قيصر أن يصل إلى حلٍّ وسط، لكنَّه لقي مصرعه على يد الأرستقراطيِّين عام ٤٤ قبل الميلاد، بعد خمسة أعوام من الحرب الأهليَّة.

أمَّا مارك أنطوني، فقد خلط بين دعمه لسياسات القيصر وبين طموحه الشخصيِّ ورومانسيَّته، فهزمه أوكتافيوس في معركة أكتيوم، وبدأ حينها «عهد الزعامة»[٣] الذي امتدَّ لمائتين

---

[١] الدَّهماء (plebeius): كانت طبقة عامَّة الشعب في الإمبراطوريَّة الرومانيَّة، التي اندرج فيها أغلبيَّة المواطنين الرومان الأحرار.

[٢] كاتلين (Catiline): عضو بمجلس الشيوخ الرومانيِّ، مشهور بمحاولته للقضاء على مجلس الشيوخ الأرستقراطيِّ.

[٣] عهد الزعامة (Principate): (٢٧ ق.م. – ٢٨٤م) هو الاسم الدارج للفترة الأولى من تاريخ الإمبراطوريَّة الرومانيَّة، يمتدُّ هذا العهد بدءًا من تتويج أغسطس قيصر إمبراطورًا لروما وحتَّى وقوع أزمة القرن الثالث، حيث يدخل وقتها عهد السيادة.

وعشر سنوات (من ٣٠ قبل الميلاد، وحتَّى ١٨٠ ميلاديًّا)، وحافظ على السلام بين الطبقات، وأيضًا بين جميع الولايات داخل حدود الإمبراطوريَّة طوال الفترة التي أطلق عليها الباكس رومانا[١].٣٨

بعد انهيار النظام السياسيِّ في الإمبراطوريَّة الرومانيَّة الغربيَّة سنة ٤٧٦ ميلاديًّا، سادت قرون طويلة من الفقر المُدقِع تلَتْها بعد ذلك تركُّز بطيء آخر للثروة، بعضٌ منه هذه المَرَّة كان في أيدي الرُّتَب العليا من الكنيسة الكاثوليكيَّة. على جانبٍ، كانت الحركة الإصلاحيَّة بعد ذلك قائمة على إعادة توزيع هذه الثروة بخفض المَدفوعات التي يدفعها الألمان والإنجليز إلى الكنيسة الرومانيَّة، وبتحويل أملاك وأرباح الكنيسة إلى أملاك علمانيَّة. حاولت الثورة الفرنسيَّة إعادة توزيع الثروات بالعنف في الثورات الجاكيَّة[٢] التي قام بها الفلاَّحون في الأرياف الفرنسيَّة، وبالمذابح التي قامت في المدن، لكنَّ النتيجة الأساسيَّة التي نتجت عن هذه الحركات كانت انتقال الأملاك والامتيازات من الطبقة الأرستقراطيَّة إلى الطبقة البرجوازيَّة،

[١] الباكس رومانا أو السلام الرومانيُّ (Pax Romana): فترة طويلة من السلام والاستقرار النسبيَّين استمرَّت منذ ٢٧ ق.م. إلى ١٨٠م في الإمبراطوريَّة الرومانيَّة بين انضمام قيصر أغسطس، مؤسِّس الزعامة الرومانيَّة، وموت ماركوس أوريليوس، آخر «الأباطرة الصالحين».

[٢] الجاكية (Jacquerie): ثورة قام بها الفلاَّحون، في الجزء الشماليِّ الشرقيِّ من فرنسا، ضدَّ طبقة النبلاء عام ١٣٥٨م.

وقامت الحكومة في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة في الفترتين من ١٩٣٣م إلى ١٩٥٢م ومن ١٩٦٠م إلى ١٩٦٥م باتِّباع طرق سولون المُسالمة في إعادة توزيع الثروة، وحقَّقت قدرًا عادلًا من إعادة التوزيع التي عملت على تهدئة الأوضاع؛ تقريبًا راجع أحدهم دروس التاريخ! كان ردُّ فعل الطبقات العليا من المجتمع الأمريكيِّ حينئذٍ أن غضبت واشتكت، وقدحت في هذه التعديلات، واستكملت مُحاولاتها لتجميع الثروة.

في الخلاصة نستنتج أن تجَمُّع الثروات طبيعيٌّ وحَتْميٌّ في أيِّ مجتمع، ويتمُّ كسره من فترة إلى أخرى بإعادة توزيع جزئيٍّ، سواء كان في إطار سِلميٍّ أو عنيفٍ. من هذا المنظور، فإنَّ حركة التاريخ تكْمُن في النبضات البطيئة للكائن الجَمْعيِّ الذي يمَثِّل المجتمع ككلٍّ، ارتفاع شديد في ضغط الدم يمَثِّله تركيز الثروات، يتلوه هبوط مُتتابع من إعادة توزيع تلك الثروات قهريًّا.

الاشتراكيَّة والتاريخ

الصراع بين الاشتراكيَّة والرأسماليَّة جزء من إيقاع تركُّز وتوزيع الثروة المُستمرِّ عبر التاريخ. الرأسماليُّون بالطبع حقَّقوا هدفًا خلَّاقًا في التاريخ؛ إنَّهم يجمعون مُدَّخرات الناس في رأسمال مُنتِج مُقابل بعض الأرباح والفوائد، لقد أسهموا في مَيْكنة الصناعة والزراعة، وإقامة التوزيع بين الناس بشكل عادل وعقلانيٍّ، والنتيجة كانت تدَفُّق السلع من المنتِج إلى المستهلِك بطريقة لم يرها العالم من قبل.

لقدِ استخدموا قوانين لعبة الحرِّيَّة لحسابهم بمُدافعتهم عن الحرِّيَّة الكاملة للتجارة، وعدم تدَخُّل اللَّوائح التشريعيَّة فيها، وعن تخفيف رسوم النقل حتَّى تكاد تنعدم بحُجَّة أنَّ ذلك يوَفِّر للعامَّة أكثر إتاحة مُمْكنة للسلع والأطعمة والمنازل والراحة والرفاهية، أكثر من أيِّ مستوًى تمَّ تحقيقه بصناعات يديرها

سياسيُّون، وتمدُّها الحكومة بالعِمالة، وربَّما تكون مُحصَّنة ضدَّ قانون العرض والطلب.

في ظلِّ العمل الحرِّ، المنافسة والحماسة والرغبة في الِامتلاك تُحرِّك إنتاجيَّة وإبداع الرجال، تقريبًا كلُّ المهارات الاقتصاديَّة تجد سوقها عاجلًا أو آجلًا، وتأخذ حصَّتها ومكانها من بين كلِّ المواهب المُتاحة في عمليَّة انتقاء طبيعيٍّ لهذه القدرات، وتدير دولة ديمقراطيَّة مثل هذا السوق بأن تكون كلُّ السلع والخدمات التي تقدَّم في السوق محدَّدة بالطلب عليها من المستهلكين لا بمرسوم حكوميٍّ. لكن على الناحية الأخرى تدفع الرأسماليَّة أصحاب رأس المال للعمالة المُستهلكة ولرفع سلعهم لأعلى درجات التمَيُّز.

قول مثل هذا فيه الكثير من الصدق اليوم، لكنَّه لا يُفسِّر لماذا يحتَجُّ التاريخ بالمظاهرات والثورات ضدَّ انتهاكات السيطرة على الصناعة والتلاعُب بالأسعار والخداع التجاريِّ والثروات غير المسؤولة؟! هذه الانتهاكات لا بدَّ أنَّها قديمة قِدَم الدهر، فقد كان هناك تجارب اجتماعيَّة في العشرات من الدول وعلى مدار عشرات القرون.

نجد ذلك في كتابات السوماريِّين، نحو ٢١٠٠ قبل الميلاد:

كانت الدولة تُنظِّم الاقتصاد، معظم الأراضي القابلة

للزراعة كانت ملكًا للمَلِك، ويتقاضى العمَّال حِصَصًا من المحاصيل التي يتمُّ توصيلها إلى المخازن المَلَكيَّة. لإدارة مثل هذا الاقتصاد الدوليِّ الضخم خلق ترتيب هرميٌّ مُتباين جدًّا، وتمَّ تسجيل كلِّ التوصيلات والتوزيعات للحصص. عشرات الآلاف من الألواح الطينيَّة مَنقوش عليها تسجيلات كهذه وُجدت في العاصمة أور نفسها، وفي لجش وأوما... التجارة الخارجيَّة – أيضًا – كانت تتمُّ باسم الإدارة المركزيَّة[٣٩].

في بلاد بابل (١٧٥٠ قبل الميلاد) عيَّن القانون الذي سنَّه حمورابي أجورًا ثابتة للرعاة والحرفيِّين، وعيَّن الثمن الذي يفرضه الأطباء للعمليَّات[٤٠].

في مصر تحت حكم البطالِمَة (٣٢٣ قبل الميلاد إلى ٣٠ قبل الميلاد) كانت الدولة تمتلك الأراضي وتُنظِّم الزراعة؛ كان يُحدَّد لكلِّ فلَّاح قطعة من الأرض يحرثها، وكان يُحدَّد له ماذا عليه أن يزرع؛ وكان حصاده يُقاس ويُدوَّن بواسطة كَتَبَةِ الحكومة، وكان يُطحن على أرض طحن مَلَكيَّة، وكان ينقله مجموعة من الفلَّاحين إلى مخازن حبوب المَلِك.

امتلكت الحكومة المَناجم واستولت على المعادن التي استخرجوها من هذه المناجم، أمَّمَت الحكومة – أيضًا – إنتاج

وتجارة الزيوت والأملاح وورق البردي والمنسوجات، كلُّ التجارة كانت مَحكومة ومُنظَّمة من قِبَل الدولة، وكان معظم تجارة التجزئة في أيدي عُمَلاء للدولة يبيعون منتجات أنتجتها الدولة، وكانت المصارف حِكْرًا على الدولة أيضًا، لكن كان من المُمْكن إسناد إدارتها إلى شركات خاصَّة.

كانت الضرائب تُسَنُّ على كلِّ شخص وكلِّ صناعة وعمليَّة ومُنتج وتجارة ووثيقة قانونيَّة، ولتسجيل التعامُلات التجاريَّة والإيرادات الخاضعة للضريبة كان لدى الحكومة أعداد هائلة من الكَتَبة، وكان هناك نظام مُعقَّد لتسجيل الأشخاص والأعيان. أرباح هذا النظام جعلت البطالمة أغنى دولة في وقتها.[٤١] تمَّ استكمال أعمال هندسيَّة ضخمة، وتمَّ تحسين الزراعة، وخُصِّص جزء كبير من الأرباح لتطوير وتزيين المدن ولتمويل الحياة الثقافيَّة. في نحو عام ٢٩٠ قبل الميلاد تمَّ تأسيس متحف ومكتبة الإسكندريَّة، ازدهر العلم والأدب، وفي تاريخ ليس معروفًا بالضبط في تلك الحقبة من حكم البطالمة قام بعض العلماء بترجمة التوراة إلى اليونانيَّة «السبعينيَّة»[١] على الرغم من ذلك كلِّه، لم يلبث الفراعنة أن شاركوا في حروب باهِظة، وبعد عام ٢٤٦ قبل الميلاد تركوا

[١] السبعينيَّة: هي الترجمة اليونانيَّة للعهد القديم التي أُجرِيَت في القرن الثالث قبل الميلاد.

أنفسهم لشرب الخمر ومُضاجعة النساء، وتركوا إدارة الدولة والِاقتصاد ليقعوا في أيدي بعض الأوغاد الذين عصروا الفقراء حتَّى أخذوا منهم آخر قروش لديهم! جيلًا بعد جيل نمَتْ عمليَّات الِابتزاز الحكوميَّة، وازدادت الضربات في العدد والقسوة. في العاصمة الإسكندريَّة، كانت الجماهير ترضى بالرخاء والمشاهد الجميلة التي يرونها كرشوة للحفاظ على الأمن، لكنَّهم كانوا مُراقبين من قِبَلِ قوات عسكريَّة ضخمة، ولم يكن مسموحًا لهم بالتصويت في الحكومة إلى أن أصبحوا في النهاية تجَمُّعات غاضبة. تدهورت الزراعة والصناعة بانعدام الحوافز، وانتشر الِانحلال الأخلاقيُّ، ولم يتمَّ استعادة النظام حتى قام أوكتافيوس بضمِّ مصر للإمبراطوريَّة الرومانيَّة (٣٠ قبل الميلاد).

أخذت روما حِصَّتها من الاشتراكيَّة في عهد دقلديانوس. في ظلِّ الفقر المُتزايد والضجر الذي يرتفع بين الحشود، وفي وجود الخطر المُحدِق من غزو بربريٍّ، أصدر دقلديانوس في عام ٣٠١ ميلاديًّا Edictum de pretiis (مرسومًا بالأسعار القصوى) والذي استنكر على المُحتكِرين سحب السلع من السوق لرفع أسعارها، وسنَّ أسعارًا قصوى وأجورًا لكلِّ السلع والخدمات المُهمَّة. وتمَّ القيام بإصلاحات اجتماعيَّة

عديدة لمحاولة دفع العاطلين للعمل، وتمَّ توزيع الطعام مجَّانًا أو بأسعار مُخفَّضة للفقراء. وضعت الحكومة – التي كانت تمتلك بالفعل في ذلك الوقت معظم المناجم والمحاجر والملَّاحات – تقريبًا كلَّ الصناعات الرئيسة والنقابات تحت الرقابة المُشدَّدة. أُخبرنا أنَّه «في كلِّ قرية كبيرة أصبحت الدولة صاحب أعمال قويًّا... تكتسح تمامًا كلَّ الصناعات الخاصَّة التي كانت على أيِّ حال ستسحقها الضرائب»[٤٢]. عندما تنبَّأ رجال الأعمال بالخراب، كان ردُّ دقلديانوس أنَّ البرابرة على الأبواب، وأنَّه يجب تنحية الحرِّيَّات الشخصيَّة على الأرْفُف حتَّى يتمَّ تأمين حرِّيَّة المجتمع كلِّه أولًا. اشتراكيَّة دقلديانوس كانت حربًا على الاقتصاد، والذي سمح لها بذلك هو الخوف من العدو الخارجيِّ. مع ثبات كلِّ العوامل الأخرى، الحرِّيَّة الداخليَّة تتناسب عكسيًّا مع الأخطار الخارجيَّة.

كانت عمليَّة السيطرة على تفاصيل الحياة الاقتصاديَّة مُضنية جدًّا على بيروقراطيَّة دقلديانوس الباهظة والمُتوَسِّعة والمليئة بالفساد. ليدعم هذه الطبقة من الموظَّفين بما فيها من الجيش والمحكمة والأعمال العامَّة والمعونات الحكومة، ارتفعت الضرائب جدًّا لدرجة أنَّ الناس فقدوا الحافز أن يعملوا لكي يتربَّحوا، وبدأ صراع هدَّام بين المحامين؛ بعضهم يحاول أن

يخلق حيلًا للتهَرُّب من الضرائب، وآخرون يحاولون سنَّ قوانين تمنع وجود الثغرات التي يستخدمها الفريق الأول. سعى الآلاف من الرومان إلى صفوف القتال الأولى حتَّى يجدوا عند البرابرة مَهْربًا لهم من جامعي الضرائب. وفي محاولة لإيقاف هذه التنَقُّلات التي يصعب إيقافها ولتسهيل التنظيمات والضرائب، أصدرت الحكومة مَرْسومًا يجبر كلَّ فلَّاح أن يلزم أرضه وكلَّ عامل أن يلزم مَتجره حتَّى يدفع كلَّ الديون والضرائب التي عليه. بهذه الطريقة، وبالعديد من الطرق الأخرى... بدأت العبوديَّة في القرون الوسطى[٤٣].

كان للصِّين العديد من المُحاولات في مجال اشتراكيَّة الدولة. سيما شيان[١] (١٤٥ قبل الميلاد) يُخبرنا أنَّه حتَّى يتمَّ منع الأفراد من «أن يحتفظوا لأنفسهم فقط بموارد الجبال والبحار طامعين أن يبنوا ثرواتهم الشخصيَّة، وأن يقهروا الطبقات الدنيا للعمل لديهم»[٤٤]. فإنَّ الإمبراطور وو تي (حكم من ١٤٠ قبل الميلاد وحتَّى ٨٧ قبل الميلاد) أمَّم موارد الأرض، وبسط سلطة الحكومة على التجارة والنقل، وسنَّ ضرائب على الإيرادات، وأنشأ الأعمال العامَّة التي كانت تتضَمَّن قنوات ربطت الأنهار ببعضها، وساعدت في ريِّ الحقول. جمعت الدولة احتياطيًّا

[١] سيما شيان (Sima Qian): هو محافظ من الكتبة الكبرى، ويُعتبر والد التأريخ الصينيِّ بسبب عمله الذي أشاد به الكثيرون.

من السلع، وباعت منها عندما كانت الأسعار ترتفع، واشترتها عندما كانت الأسعار تنخفض، وبذلك - يقول سيما شان: - «منع هذا التجار الأغنياء وأصحاب المتاجر من أن يُحقِّقوا أرباحًا كبيرة... وتمَّ تنظيم الأسعار في الإمبراطوريَّة»[٤٥]. وكما قيل: ازدهرت الصين لبعض الوقت كما لم تزدهر من قبل، قامت مجموعة من «الأفعال الإلهيَّة» والشرور الآدميَّة بوضح حدَّ لهذه التجربة بعد وفاة الإمبراطور. تناوبت فترات الفيضان والجفاف، ممَّا أدَّى إلى نقص حادٍّ في الغذاء ورفع الأسعار بدرجة لا يُمكن التحَكُّم بها. عبَّر رجال الأعمال عن ضجرهم مُحتجِّين على الضرائب التي يرون أنَّها جعلتهم يدعمون الكسالى والناقصين. اجتمع الفقراء غير قادرين على تحَمُّل زيادة تكاليف المَعيشة مع الأغنياء على المُطالبة بإعادة الطرق الإداريَّة القديمة، وبعضهم اقترح أن يتمَّ غلي الشخص الذي اقترح النظام الجديد حيًّا! تمَّ إلغاء الإصلاحات واحدًا تلو الآخر، وكانت قد ذهبت من ذاكرة الناس تقريبًا عندما قام ملك فيلسوف صينيٌّ بإعادتهم للحياة.

وانج مانج (حكم من ٩ وحتى ٢٣ ميلاديًّا) كان عالمًا مرموقًا وراعيًا للأدب، ومليونيرًا، قام بتوزيع ثروته بين أصدقائه والفقراء. عندما وصل إلى العرش أحاط نفسه بعدد

من الرجال المُدرَّبين في الأدب والعلوم والفلسفة، قام بتأميم الأراضي، ووَزَّعها بمساحات مُتساوية بين الفلَّاحين، ووضع حدًّا للعبوديَّة. كما فعل وو تي حاول التحَكُّم في الأسعار عن طريق جمع وإطلاق المخزونات، قام بإقراض الأعمال الخاصَّة بفوائد صغيرة، المجموعة الذين تضَرَّرت مصالحهم بتشريعاته الجديدة اجتمعوا ليُخَطِّطوا لسقوطه، وساعدهم في ذلك الفيضانات والجفاف والغزو الخارجيُّ. عائلة ليو الغنيَّة وضعت نفسها على رأس الإضراب العامِّ، قتلوا وانج مانج، وقاموا بإلغاء جميع تشريعاته.

كلُّ شيء عاد كما كان[٤٦].

بعد ذلك بألف عام، قام وانج آنشي كرئيس للوزراء (١٠٦٨ - ٨٥) باتِّخاذ إجراءات حكوميَّة مُتشَعِّبة للهيمنة على الاقتصاد الصينيِّ، وذكر أنَّ «الدولة يجب عليها أن تتكَفَّل بعمليَّة تنظيم التجارة والصناعة والزراعة جميعها، بمنظور تحاول فيه أن تخَفِّف على الطبقة العاملة وتمنعهم من أن يتمَّ دهسهم في التراب من الأغنياء»[٤٧]. أنقذ الفلَّاحين من المُقرضين بعرض قروض بفوائد مُنخفضة، وشجَّع الِاستثمار الزراعيَّ الجديد بتقديم الحبوب والمساعدات الأخرى على أن يأخذ ثمنها عند جني المحصول من الأراضي، قام

بالإشراف على عدد من المشاريع الهندسيَّة الضخمة للسيطرة على الفيضانات وللحَدِّ من البَطالة، تمَّ تعيين المجالس في كلِّ منطقة لتنظيم الأجور والأسعار، تمَّ تأميم التجارة، تمَّ تقديم المَعاشات للمُسنِّين والعاطلين والفقراء، تمَّ إصلاح نظام التعليم والِامتحانات الذي كان يتمُّ من خلاله تحديد من يلتحق بالوظائف الحكوميَّة؛ حتَّى إنَّ مؤرِّخًا صينيًّا روى أنَّ «الطلَّاب تخَلَّصوا من كتب الخطابة والبلاغة، وبدأوا يتعَلَّمون مبادئ التاريخ والجغرافيا والِاقتصاد السياسيِّ»[٤٨].

ما الذي أفشل التجربة؟

أولًا: الضرائب الباهظة التي فُرضت على الجميع لتستطيع الحكومة أن تدفع أجور الأعداد المُتضَخِّمة من المُوَظَّفين الجُدُد. ثانيًا: التجنيد الإجباريُّ لشابٍّ من كلِّ أسرة لإعداد الجيش اللَّازم لمُواجهة الغزو البربريِّ. ثالثًا: فساد النظام البيروقراطيِّ؛ كانت الصين - شأنها شأن العديد من الأمم - تواجه خيارًا صعبًا بين النهب من الشركات الخاصَّة أو فساد المؤسَّسات العامَّة. زعم المُحافظون بقيادة أخي وانج آنشي أن قابلية الناس للفساد وعدم كفاءتهم تجعل إسناد الصناعات للحكومة أمرًا غير عمليٍّ، وأنَّ أفضل نظام اقتصاديٍّ هو اقتصاد سياسة عدم التدَخُّل laissez - faire الذي يعتمد على أن تُحَرِّك دوافعُ الناس السوقَ. قام الأغنياء مُتأثِّرين بلذعة الضرائب الباهظة على ثرواتهم وباحتكار الحكومة للتجارة،

بضخِّ أموالهم في حملات لتشويه صورة النظام الجديد وإفقاده مِصداقيَّته، ولإعاقة أدائه والقضاء عليه. كانت هذه الحركة مُنظَّمة بشكل جيِّد، ومارست ضغطًا على الإمبراطوريَّة. عندما مرَّت فترة أخرى من الفيضان والجفاف، ثمَّ توَّجها ظهور نيزك مُرعب، قام ابن السماء بإقالة وانج آنشي، وفسخ كلَّ مرسوماته، ووضع المُعارضين له في موضع السلطة[٤٩].

كان أطول الأنظمة الاشتراكيَّة صمودًا على مرِّ التاريخ هو النظام الذي أقامته شعوب الإنكا فيما يُعرف الآن بمدينة بيرو في وقت ما من القرن الثالث عشر، نظَّم الإنكا ووَجَّهوا كلَّ تجارتهم وزراعتهم وأعمالهم ومعظم سلطتهم على الاعتقاد السائد بأنَّ ملك الأرض مندوب من إله الشمس، قامت الحكومة بحصر كلِّ الموادِّ والأفراد والدخول، اعتمدوا على «عدَّائين» مُحترفين ونظام طرق استثنائيٍّ في الحفاظ على شبكة تواصل لا غنى عنها بالنسبة لحكم دقيق مثل هذا على مثل هذه الأرض الشاسعة. كلُّ شخص كان مُوظَّفًا لدى الدولة، ويبدو أنَّهم تقبَّلوا هذا الأمر بسعادة على أنَّه وعد بالغذاء والأمن، استمرَّ هذا النظام حتَّى احتلَّ بيثارو إمبراطوريَّة إنكا عام ١٥٣٣م.

على الناحية الأخرى من مُنحدر أمريكا الجنوبيَّة في المستعمرة البرتغاليَّة على طول نهر الأوروجواي، قام ١٥٠ من اليسوعيِّين بتنظيم ٢٠٠٫٠٠٠ هنديٍّ في نظام اجتماعيٍّ اشتراكيٍّ (من ١٦٢٠م وحتَّى ١٧٥٠م). أدار القسُّ الحاكم تقريبًا كلَّ الزراعة والتجارة والصناعة. كانوا يسمحون للشباب أن يختاروا بين الحرف التي يمكنهم تعلُّمها، لكنَّهم كانوا يُطالبون الأصحَّاء ذوي الأجساد القادرة على العمل ثمان ساعات يوميًّا. جهَّزوا بعض الإعدادات للترفيه، رتَّبوا الرياضات والرقصات والأداءات الغنائيَّة التي شارك فيها آلاف الأصوات، كما درَّبوا فرقًا موسيقيَّة لتعزف موسيقى أوروبيَّة. لقد خدموا – أيضًا – كمعلِّمين وأطباء وقضاة، وصمَّموا قانون عقوبات لم يحتوِ على عقوبة بالإعدام. بكلِّ المعايير كان السكَّان الأصليُّون راضين ومُنصاعين، وعندما تمَّت مُهاجمة هذا المجتمع دافعوا عن أنفسهم بحماسة وقدرة أذهلت المهاجمين. في عام ١٧٥٠م تراجع البرتغاليُّون إلى المنطقة الإسبانيَّة التي تضمَّنت سبعة من المُستوطنات اليسوعيَّة، انتشرت إشاعة أن أراضي المُستعمرات تحتوي على الذهب، وأصرَّ الإسبان في أمريكا على الِاحتلال الفوريِّ، وأمرت الحكومة البرتغاليَّة برئاسة بامبل (كان حينها على خلاف مع

اليسوعيِّين) القساوسة والسكَّان الأصليِّين من الهنود بمُغادرة المُستعمرة، وبعد القليل من المُقاومة من الهنود كانت هذه هي نهاية التجربة[٥٠].

في الثورة الاجتماعيَّة التي صاحبت الإصلاح البروتستانتيَّ في ألمانيا، تمَّ رفع العديد من الشعارات الاشتراكيَّة المُستندة إلى الكتاب المُقدَّس من قبل بعض قادة الثائرين، توماس مونتسير واعظ دعاه الناس ليسقط الأمراء ورجال الدين وأصحاب رأس المال، وليُعيد إنشاء «مجتمع أرقى» حيث يكون كلُّ شيء مُتاحًا للجميع[٥١]. قام بإعداد جيش من الفلَّاحين، وأشعل حماسهم بقصص عن الِاشتراكيَّة التي قامت على أيدي بعض تلامذة المسيح، وقادهم إلى المعركة، لكنهم هُزموا في تلك المعركة، وقُتل خمسة آلاف منهم، وتمَّ قطع رقبة مونتسر (١٥٢٥). قام هانس هوت متَّبعًا تعاليم مونتسر بتنظيم جماعة أنابابتستيَّة[١] في أوستيرلتس، وعاشت هذه الجماعة على الاشتراكيَّة لنحو قرن من الزمان (منذ ١٥٣٠ إلى ١٦٢٢). قاد جون (قائد أنابابتستي من لايدن) مجموعة من الأنابابتست واستولوا على مونستر عاصمة وستفاليا، واستطاعوا هناك

[١] الأنابابتست أو تجديديَّة العماد (Anabaptist): حركة مسيحيَّة إصلاحيَّة، ظهرت في أوروبا في القرن السادس عشر على شكل جماعات مُتفرِّقة في ألمانيا وهولندا وسويسرا في فترة مُتزامنة مع بداية الإصلاح البروتستانتيِّ.

الحفاظ على مجتمع اشتراكيٍّ لمدَّة أربعة عشر شهرًا (١٥٣٤ – ٣٥).[٥٢]

في القرن السابع عشر أخذت مجموعة المساواتيَّة[١] في جيش كروميل[٢] تستجديه أن يؤسِّس دولة اشتراكيَّة في إنجلترا، ولكن بدون فائدة. خمد غضب الثورة الاشتراكيَّة خلال عصر الاسترداد البريطانيِّ، لكنَّه ظهر مُجدَّدًا مع الثورة الصناعيَّة، عندما كشفت عن طمع ووحشيَّة الرأسماليِّين الأوائل، من عمالة الأطفال والنساء إلى طول ساعات العمل وقلَّة الأجور والمصانع الناشرة للأمراض والأحياء الفقيرة. أعطى كارل ماركس وفريدريك إنجلز للحركة ميثاقها الأعظم في كتاب بيان الحزب الشيوعيِّ عام ١٨٤٧م، وكتابها المُقدَّس في كتاب رأس المال (١٨٦٧ – ٩٥). كانا يتوَقَّعان أنَّ الِاشتراكيَّة ستُنفَّذ في إنجلترا أولًا؛ لأنَّ الصناعة هناك كانت أكثر تطوُّرًا من أيِّ مكان آخر، ووصلت لمرحلة من الإدارة المركزيَّة تُغري الحكومة للاستيلاء عليها، لكنَّهما لم يعيشا كفاية حتَّى فاجأهم اندلاع الشيوعيَّة في روسيا.

[١] Levellers: حركة سياسيَّة نشأت في إنجلترا أثناء الحرب الأهليَّة (١٦٤٢م – ١٦٥١م) كانت تهدف لتحقيق السيادة الشعبيَّة ومدِّ حقِّ الِاقتراع وتحقيق المُساواة أمام القانون والتسامح الدينيِّ.

[٢] أوليفر كروميل (Oliver Cromwell): (١٥٩٩ – ١٦٥٨) قائد عسكريٌّ وسياسيٌّ إنجليزي، اعتبره نُقَّاده أحد القادة الديكتاتوريِّين. هزم الملكيِّين في الحرب الأهليَّة الإنجليزيَّة.

لماذا بدأت الاشتراكيَّة أولًا في روسيا، حيث لم تكن الرأسماليَّة تطوَّرت بما يكفي، ولم يكن هناك أيُّ شركات ضخمة تسهِّل الانتقال إلى سيطرة مركزيَّة من الدولة؟ لقد مهَّد الطريق قرون من فقر الفلَّاحين ورزم من المُفكِّرين الثوريِّين، لكنَّ الفلَّاحين كانوا قد حصلوا على حرِّيَّتهم في ١٨٦١م، وكان المُفكِّرون يميلون إلى دولة أناركيَّة مُضادَّة تمامًا لهذه الولاية التي تتحَكَّم في كلِّ شيء. ربَّما نجحت الثورة الروسيَّة في ١٩١٧م لأنَّ حكومة زارست هُزِمت وشانتها الحرب والإدارة الرديئة، انهار الاقتصاد الروسيُّ، وأصبح فوضى، وعاد الفلَّاحون من خطوط القتال، وقد عرفوا كيف يحملون الأسلحة، وأُعطيَ لينين وتروتسكي الأمان من الحكومة الألمانيَّة. أخذت الثورة شكلها الشيوعيَّ؛ لأنَّ الدولة الجديدة كانت مهدَّدة باضطرابات داخليَّة وهجوم خارجيٍّ، وتصَرَّف الشعب كما تتصَرَّف جميع الشعوب تحت الحصار، وضع كلٌّ منهم حرِّيَّته الشخصيَّة جانبًا حتَّى يتمَّ استرداد الأمن والنظام للمجتمع. هنا - أيضًا - كانت الاشتراكيَّة نظامًا ناتجًا عن حرب، ربَّما ما زالت الِاشتراكيَّة باقية لِاستمرار وجود تهديدات وأخطار الحروب، وربَّما لو توَفَّر السلام التامُّ لعِدَّة أجيال ستتآكل فكرة الِاشتراكيَّة بسبب طبيعة الإنسان.

إنَّ الِاشتراكيَّة في روسيا الآن تُعيد شيئًا من الدوافع الفرديَّة لتُعطي نظامها الاقتصاديَّ بعض المُحرِّكات، وتسمح لشعبها بمزيد من الحرِّيَّة الجسديَّة والفكريَّة، بينما على الناحية الأخرى تمُرُّ الرأسماليَّة بعمليَّة مشابهة من حدٍّ ما يمكن للأفراد امتلاكه بتشريعات شبه اشتراكيَّة ومحاولة لإعادة توزيع السلطة في إطار «دولة الرفاهية». كان ماركس تلميذًا غير مُخلص لهيجل؛ فقد ترجم جدليَّة هيجل بأنَّ الصراع بين الرأسماليَّة والِاشتراكيَّة سينتهي بانتصار كامل للاشتراكيَّة، لكن إذا تناولنا نمط جدليَّة هيجل الذي يتكَوَّن من فكرة نُسمِّيها الأطروحة، وفكرة مُضادَّة نُسمِّيها النقيضة ونتيجة لمحاولة الجمع بينهما، وأسقطناه على الثورة الصناعيَّة كأطروحة، وعلى الرأسماليَّة في مقابل الاشتراكيَّة كنقيضة، فإنَّ المكَوِّن الثالث لهذه الجدليَّة سيكون توليفة من الِاشتراكيَّة والرأسماليَّة، وهو النتيجة التي يسعى العالم الغربي إلى كشفها الآن. بمرور السنوات يزداد تدَخُّل الحكومات الغربيَّة في الِاقتصاد وتقِلُّ حصَّة القطاع الخاصِّ منه. تحتفظ الرأسماليَّة بالدوافع التي تخلقها الملكيَّة الخاصَّة وحرِّيَّة الاستثمار والمنافسة، كما تنتج إنتاجًا وفيرًا من البضائع، ووقوع همِّ الضرائب العالية على الطبقات العليا من المجتمع يمكِّن الحكومة من أن تُحافظ على نظام يحُدُّ وينَظِّم

نفسه بنفسه ويوَفِّر خدمات غير مسبوقة في التعليم والصحَّة والترفيه. خوف الِاشتراكيَّة من الرأسماليَّة يدفعها إلى توسعة مجال الحرِّيَّة للأفراد، وخوف الرأسماليَّة من الاشتراكيَّة يدفعها إلى زيادة المُساواة. الشرق والغرب واحد، وقريبًا سيتقابلان.

نظم الحكم والتاريخ

كان ألكسندر بوب يظنُّ أنَّ الحمقى فقط هم من يمكن أن يختلفوا على الأشكال المُمْكنة للحكم. التاريخ لديه نصيحة جدِّيَّة يقولها لهم ولنظم الحكم عمومًا؛ لأنَّ الناس يحِبُّون الحرِّيَّة وحرِّيَّة الأفراد في المجتمع تتطَلَّب تنظيمًا للسلوك العامِّ، فأوَّل شروط الحرِّيَّة هو حدودها؛ اجعلها بلا حدود وستغرق في فوضى. لذلك فالوظيفة الأساسيَّة لنظام الحكم هي أن يحافظ على النظام؛ سلطة نظاميَّة مركزيَّة هي البديل الوحيد لقوى مُتناثرة ومُتشابكة في أيدي الأفراد. تتمركز القوَّة بطبيعتها في نقطة واحدة؛ لأنَّها غير فعَّالة حينما تتوَزَّع وتخفَّف أو تنتشر كما حدث في بولندا في فترة التي حكمت بمبدأ الاعتراض الحرِّ (Liberum Veto) [١]؛ لذلك كان

[١] مبدأ الاعتراض الحرِّ (Liberum Veto): أداة برلمانيَّة استُخدِمت في برلمان الكومنولث البولنديِّ الليتوانيِّ (دولة سابقة تشكَّلت في ١٥٦٩م، وانحَلَّت ١٧٩٥) سمحت لأيِّ عضو من المشرِّعين أن يُنهي الجلسة القائمة ويُوقف العمل بكلِّ ما تمَّ إقراره فيها.

المؤرِّخون راضين عن تركيز السلطة في النظام الملكيِّ الذي أقامه ريشيليو[١] أو بيسمارك[٢] في مقابلة احتجاجات النبلاء الإقطاعيِّين. عمليَّة مُشابهة ركَّزت السلطة لدى الحكومة المركزيَّة في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة؛ لم يكن من المنطقيِّ الحديث عن «حقوق الولايات» عندما كان النظام الاقتصاديُّ يتجاهل حدود الولايات، وكان من المُمْكن أن يُنظَّم كلُّ شيء بحكومة مركزيَّة وحسب. اليوم تتطَوَّر الحكومة الدوليَّة كما تتطَوَّر الصناعة والتجارة، والموارد الماليَّة تتخَطَّى الحدود وتأخذ الآن شكلًا دوليًّا في المعاملة.

يبدو أنَّ المَلَكيَّة هي أكثر صورة طبيعيَّة للحكم، فهي تحاكي في سلطتها على المجموعة سلطة الأب على الأسرة أو سلطة شيخ القبيلة في قبيلة مُحاربة، ولو أنَّنا سنحكم في هذا الأمر بطول المُدَّة التي حافظت عليها كلُّ صورة للحكم ومدى انتشارها فسنحكم مرَّة أخرى للمَلَكيَّة. الديمقراطيَّة لم تكن إلَّا فترات إعياء بالمقارنة بها.

---

[١] ريشيليو (Richelieu): (١٥٨٥ – ١٦٤٢) رجل دولة ورجل دين ونبيل فرنس، كان وزير الملك الفرنسيِّ لويس الثالث عشر، ومن ثمَّ أصبح سيِّد الوزراء لدى لويس الثالث عشر من سنة ١٦٢٢م وحتَّى وفاته. كان يكيد سلطة الملك ويضرب على أيدي النبلاء في المُقابل.

[٢] أوتو فون بسمارك (Otto von Bismarck): (١٨١٥ – ١٨٩٨) رجل دولة وسياسيٌّ بروسيٌّ – ألمانيٌّ، شغل منصب رئيس وزراء مملكة بروسيا بين عامي ١٨٦٢م و١٨٩٠م، وأشرف على توحيد الولايات الألمانيَّة وتأسيس الإمبراطوريَّة الألمانيَّة.

بعد سقوط الديمقراطيَّة الرومانيَّة في الحروب الطبقيَّة التي أشعلها الإخوة جراكوس[١]، وماريوس ويوليوس قيصر، استطاع أغسطس أن يحقِّق بما كان بالفعل حكمًا مَلَكيًّا، أعظم إنجاز في تاريخ رجال الدولة: بأن حافظ على السلام الروماني منذ ٣٠ قبل الميلاد وحتَّى ١٨٠ ميلاديًّا في إمبراطوريَّة اتَّسعت حدودها من المحيط الأطلسيِّ إلى الفرات، ومن أسكتلندا إلى البحر الأسود. قامت المَلَكيَّة من بعده بوَصْم نفسها تحت حكم كاليجولا ونيرو ودوميتيان، لكن من بعدهم جاء نيرفا وتراجان وهادريان وأنطونيوس بيوس وماركوس أوريليوس[٢] «أفضل سلسلة مُتوالية من الملوك العظماء الذين شهدهم العالم»[٥٣]. هكذا قال عنهم رينان، وقال عنهم جيبون: «إذا طلب من أيِّ أحد أن يعيِّن الفترة التي كان فيها حال الجنس البشريِّ أسعد ما كان عليه والفترة الأكثر رخاءً، فإنَّه وبلا تَرَدُّد سيختار الفترة التي مرَّت منذ تولِّي نيرفا وحتَّى وفاة ماركوس أوريليوس. يُمكن أن تكون فترة حكمهم جميعًا هي الوحيدة على وجه الأرض التي كان فيها سعادة أكبر عدد من الناس هي

---

[١] الإخوة جراكوس (Gracchi brothers): كلاهما كان مُمَثِّلاً للعامَّة في «منابر العامَّة» التي كانت تعمل على مُراقبة مجلس الشيوخ.

[٢] أول خمسة أباطرة من السلالة النيرفيَّة الأنطونيَّة التي تكَوَّنت من ستَّة أباطرة حكموا الإمبراطوريَّة الرومانيَّة على مدى ما يقرب من قرن (٩٦ - ١٩٢). عُرف هؤلاء الخمسة بالأباطرة الجيِّدين.

الهدف الوحيد للحكم»[٥٤]. في ذلك العصر المُذهل عندما كان الشعب الروماني يتفاخر بكونه تحت حكمها، كانت المَلَكيَّة بالتبَنِّي: كان الملك يوَلِّي بعده لا أبناءه، لكن أقدر وأبرع رجل يجده؛ كان يتبَنَّى ذلك الرجل كابن له، ويُدرِّبه على وظائف الحكم، وشيئًا فشيئًا كان يُسلمه زمام السلطة. عمل هذا النظام جيِّدًا، وجزء من السبب كان أنَّ تراجان وهادريان لم يكن لهم أبناء، وأبناء أنطونيوس بيوس ماتوا في طفولتهم. ماركوس أوريليوس كان له ابنه كومودوس الذي خلفه؛ لأنَّ الفيلسوف لم ينجح في تسمية وريث آخر، بعدها بقليل أصبحت الفوضى هي الملك.[١]

خلاصة الأمر: أنَّ المَلكيَّة لها سِجلٌّ مُعتدل. الحروب التي قامت فيها على الوراثة جلبت للبشريَّة شرورًا بقدر ما جلبت لها الاستمراريَّة أو «الشرعيَّة» من الخير. عندما يكون الحكم بالوراثة، في الغالب يظهر كمٌّ كبير من الغباء والمَحسوبيَّة وانعدام المسؤوليَّة والتبذير أكثر ممَّا تظهر نبلًا واهتمامًا بالمحكومين. غالبًا ما يعدُّ لويس الرابع عشر النموذج المثالي

[١] يجب أن نضيف أنَّ بعض المُؤرِّخين يَعتبر عصر الأنطونيِّين «مُحاولة فاشلة لاستجماع القوَّة» في وقت اضمحلال روما. انظر كتاب ج. توينبي «دراسة التاريخ» (لندن، ١٩٣٤ وما بعده) الجزء ٤ صفحة ٦٠. (هامش المؤلف)

للملوك الحديثين، لكنَّ الشعب الفرنسي ابتهج بموته. من الظاهر أنَّ تعقيد الدول الحاليَّة يدمِّر أيَّ عقل يُحاول أن يستوعبها.

لذلك كانت معظم نظم الحكم أوليجاركيَّة، وتتكَوَّن من عدد قليل من الأفراد الحاكمين الذين يتمُّ اختيارهم لنسبهم كما في المجتمعات الأرستقراطيَّة أو من قِبَل مؤسَّسة دينيَّة كما في حالة السلطة الدينيَّة، أو بالثروة كما في النظم الديمقراطيَّة. ليس من الطبيعيِّ إطلاقًا (كما هو رأي روسو حتَّى) أن تحكم الأغلبيَّة، فالأغلبيَّة يصعب جدًّا أن ينظِّموا أنفسهم، ويجتمعوا على فعل واحد ومُشترك، بينما يستطيع أن يفعل ذلك عدد قليل. إذا أمكن جمع معظم القدرات وتركيزها في عدد قليل من الرجال، فإنَّ حكم الأقلِّيَّة لا يُمكن تفاديه كما لا يُمكن تفادي تركيز الثروات، لا يُمكن للأغلبيَّة إلَّا أن تقوم من فترة إلى أخرى بطرح الأقلِّيَّة الحاكمة وتنصيب أخرى مكانها. يدَّعي الأرستقراطيُّون أنَّ الِاختيار بالنسب أكثر الخيارات عَقلانيَّة بين البدائل الأخرى من الاختيار بالمال أو المنصب الدينيِّ أو بالعنف. الأرستقراطيَّة تأخذ القليل من الرجال بعيدًا عن إجهاد وخشونة الصراع الاقتصاديِّ، وتُدرِّبهم منذ نعومة أظافرهم

من خلال الأمثلة، والبيئة المحيطة بهم، وتسليمهم مناصب صغيرة تُدرِّبهم لمهامِّ الحكم، هذه المهامُّ تتطلَّب إعدادًا خاصًّا لا تستطيع أيُّ أسرة أو بيئة أن تُقدِّمه. الأرستقراطيَّة ليست فقط حضانة لإعداد رجال الدولة، إنَّها - أيضًا - مُستودع ومُحرِّك للثقافة والأعراف والمعايير والذوقِيَّات، وهي بذلك تعمل كحاجز واقٍ من البدع الاجتماعيَّة والخَبَل الفنِّيِّ والتغَيُّرات السريعة والمفاجئة للكود الأخلاقيِّ. انظر مثلًا ماذا حدث للأخلاق والأعراف والفنون منذ اندلاع الثورة الفرنسيَّة.

لقد ألهمت الأرستقراطيَّة الفنَّ، ودعمته وسيطرت عليه، لكن نادرًا ما أنتجته. إنَّ الأرستقراطيَّ ينظر إلى الفنَّانين على أنَّهم عِمالة يدويَّة، فهو يفضِّل فنَّ الحياة على حياة الفنِّ، ولن يُفكِّر أبدًا أن يضع نفسه في كدٍّ يستهلكه، وهو ما يكون في الغالب ثمن العبقريَّة. لا يُنتج في الغالب أعمالًا أدبيَّة؛ لأنَّه يرى أنَّ الكتابة من أجل النشر استعراض وتجارة. كانت نتيجة ذلك أنَّ الأرستقراطيَّة الحديثة تميل إلى السير المُستهتر الهاوي وراء المتع، إجازة مدَّتها الحياة كلُّها يتمَتَّع فيها صاحبها بكلِّ مُمَيِّزات مركزه دون أن يولي مسؤوليَّاته أيَّ اهتمام. لذلك تداعت بعض الطبقات الأرستقراطيَّة. ثلاثة أجيال فقط فصلت

بين «أنا الدولة»[١] و«من بعدي الطوفان».[٢]

إنَّ خدمات الأرستقراطيَّة لم تنقذها عندما احتكرت الامتيازات والسلطة في عدد محدود جدًّا من الناس، عندما قهرت الناس بتلاعب أنانِيٍّ وقصير الأفق، عندما أخَّرت نموَّ الأمم بتمَسُّكها الأعمى بطرق الأسلاف، عندما استهلكت مصادر الدولة والأيدي العاملة في التسلية الفاخرة بالحروب على الحكم أو بحروب لزيادة النفوذ. حينها التحم المُستبعَدون كلُّهم في ثورة عريضة، الطبقة الغنيَّة الجديدة اتَّحدت مع الطبقة الفقيرة ضدَّ الركود والتعطيل، قطعت المِقْصَلةُ رؤوس آلاف النبلاء، وبدأت الديمقراطيَّة تأخذ دورها في إساءة حكم البشريَّة.

هل يبرِّر التاريخ الثورات؟

هذه مناظرة قديمة، يُمثِّلها جيِّدًا موقف لوثر وخروجه

---

[١] "L'État, c'est moi" يزعم أن ملك فرنسا لويس الرابع عشر ألقاها في ١٣ أبريل ١٦٥٥م عندما كان عمره ستَّ عشرة سنة أمام برلمان باريس، للتذكير بأولويَّة السلطة المَلَكيَّة.

تحوَّلت مثالًا للاستبداد السياسيِّ، ويُشير الكاتب بها هنا إلى حرص الملك على حكمه ومكانته.

[٢] "Après nous, le déluge" تُنسب هذه المَقولة إلى مدام دي بومبادور، عشيقة ملك فرنسا لويس الخامس عشر. عندما أرادت رفع معنويَّاته بعد هزيمته في معركة بدعوته إلى عدم التفكير في عواقب الهزيمة.

العنيف من الكنيسة الكاثوليكيَّة في مُقابل نداء إيراسموس[١] بعمليَّة إصلاح منظَّمة وصبورة، أو وقوف جيمس فوكس[٢] مع الثورة الفرنسيَّة مُقابل دفاع إدموند بيرك عن حقِّ «التقادم» والاستمراريَّة.

في بعض الأحيان، تحتاج بعض المؤسَّسات المُبتذلة القديمة وغير القابلة للتغَيُّر لاستئصال عنيف، كما حدث في روسيا في ١٩١٧م، لكن من الواضح أنَّه في معظم الحالات آثار التغيير التي تُحَقِّقها الثورات كان من المُمْكن أن يُحقِّقها التدَرُّج الاقتصاديُّ القسْريُّ دون الحاجة إلى ثورة. أمريكا كانت ستكون عاملًا مُهمًّا بين الدول المُتحدِّثة بالإنجليزيَّة دون ثورات، بدَّلت الثورة الفرنسيَّة طبقة تملك وتُسيطر على الأراضي والأموال مكان الطبقة الأرستقراطيَّة الحاكمة في تولِّي سلطة البلاد؛ لكن نتيجة مُشابهة حدثت في إنجلترا في القرن التاسع عشر دون سفك للدماء ودون إزعاج للسلام العامِّ. الانفصال المُفاجئ عن الماضي يحمل في طيَّاته ارتباطًا

---

[١] إيراسموس (Desiderius Erasmus Roterodamus): فيلسوف هولنديٌّ، من رواد الحركة الإنسانيَّة في أوروبا، حاول أن يضع مبادئ الحركة الإنسانيَّة حسب التوَجُّهات المسيحيَّة، كما أراد أن يُقرِّب بين أتباع المذهب الكاثوليكيِّ وأتباع الحركات الإصلاحيَّة الجديدة.

[٢] شارلز جيمس فوكس (Charles James Fox): (١٧٤٩ - ١٨٠٦) رجل دولة يمينيٌّ بارز امتَدَّت مِهنته البرلمانيَّة لمُدَّة ٣٨ عامًا في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، كان من المرحِّبين بالثورة الفرنسيَّة عام ١٧٨٩م.

جديدًا بالهمجيَّة والتهوُّر الذين يُمكن أن يخلقهما الضرب المُفاجئ أو التحَوُّر، كما أنَّ احتفاظ المرء بسلامة عقله يكمُن في استمراريَّة ذكرياته، فإنَّ السلامة العقليَّة للمجموعة تكمُن في استمراريَّة تقاليدهم؛ في كلتا الحالتين كسر السلسلة يستدعي تفاعلًا مُفاجئًا كما حدث في مَجزرة باريس في سبتمبر ١٧٩٢م.[١]

لأنَّ الثراء نظام وطريقة في الإنتاج والتبادل لا تراكم سلع (معظمها قابل للتلف)، وثقة في الأفراد والمؤسَّسات (نظام «الائتمان») لا في قيمة جوهريَّة في العملات النقديَّة أو الشيكات، فالثورات العنيفة لا تُعيد توزيع الثروة بقدر ما تُحطِّمها. قد يكون هناك إعادة تقسيم للأراضي، لكنَّ التفاوت الطبيعيَّ الموروث بين الرجال سرعان ما يُعيد التفاوت في المُمْتلكات والامتيازات، ويمتلك السلطة في النهاية أقلِّيَّة لها النزعات نفسها التي كانت موجودة. الثورة الحقيقيَّة الوحيدة هي تنوير العقول وتحسين الشخصيَّات، التحَرُّر الوحيد الحقيقيُّ هو تحَرُّر فرديٌّ، والثوريُّون الوحيدون الحقيقيُّون همُ الفلاسفة والمبَشِّرون.

---

[١] انظر وصف تين الذي لا يُنسىَ في كتاب «الثورة الفرنسيَّة» (نيويورك، ١٩٣١) الجزء الثاني صفحات ٢٠٩ – ٢٣٣.

لو راعينا الاستخدام الدقيق للكلمة، فالديمقراطيَّة وُجدت فقط في وقتنا الحديث، إلى حدٍّ كبير منذ الثورة الفرنسيَّة. بالنسبة للذكور البالغين بدأ الاقتراع في أمريكا منذ حكم أندرو جاكسون، لكن بالنسبة لشخص بالغ فحسب بدأ الاقتراع في شبابنا. من بين شعب بلغ تعداده ٣١٥٬٠٠٠ في أتيكا القديمة، ١١٥٬٠٠٠ كانوا عبيدًا، و٤٣٬٠٠٠ فقط كانوا مُواطنين، ولهم حقُّ الاقتراع[٥٥]. النساء، وتقريبًا كلُّ الرجال العاملين والباعة والتجار، وكلُّ السكَّان الأجانب، كانوا محرومين من حقِّ الانتخاب. كانت الأقلِّيَّة التي يُعترَف بهم كمواطنين مقسَّمة إلى فصيلين: فصيل أوليجاركيٍّ، معظمهم هبطوا من الطبقة الأرستقراطيَّة أو من علية الطبقة الوسطى البرجوازيَّة؛ وفصيل ديموقراطيٍّ، ملَّاك الأراضي الصغار وصغار رجال الأعمال والمواطنون الذين سقطوا إلى العِمالة بالأجر، ولكنَّهم ما زال لهم حقُّ الانتخاب.

أثناء صعود بريكليس (٤٦٠ إلى ٤٣٠ قبل الميلاد) سادت الأرستقراطيَّة، وعاشت أثينا أزهى عصورها الأدبيَّة والدراميَّة والفنِّيَّة. بعد وفاته، وبعد الخزي الذي لحق بالأرستقراطيَّة بعد هزيمة أثينا في الحرب البيلوبونيسيَّة (٤٣١ إلى ٤٠٤ قبل الميلاد)، صعد العامَّة (the demos) إلى السلطة، وهذا

ممَّا عدَّه سقراط وأفلاطون مُقرفًا للغاية. من سولون وإلى الغزو الرومانيِّ لليونان (١٤٦ قبل الميلاد) كان النزاع بين الأولجاركيَّة والديمقراطيَّة يشنُّ بالكتُب والمسرحيَّات والخطب والتصويت والنفي والاغتيال والحروب الأهليَّة. في كروكيا (تدعى الآن كورفو) في ٤٢٧ قبل الميلاد، قتلت الطبقة الأولجاركيَّة الحاكمة ستِّين قائدًا من الحزب الشعبيِّ، أسقط المناصرون للديمقراطيَّة الأوليجاركيِّين وجرَّبوا خمسين منهم قبل أن تقوم ما يُمكن أن تُوصف بلجنة السلام العامَّة بإعدام الخمسين كلِّهم وترك المئات من الأرستقراطيِّين ليموتوا من الجوع في السجون. يذكِّرنا وصف ثوسيديديس بباريس بين ١٧٩٢ - ٩٣:

خلال سبعة أيام قام الكوركيون بذبح إخوانهم المواطنين الذين اعتبروهم أعداءً... ثار الموت بكلِّ الأشكال، وكما هي العادة في مثل هذه الأوقات لم يكن هناك حدٌّ وقف عنده العنف؛ قُتل الأبناء على أيدي آبائهم، وتمَّ جرُّ المُصلِّين خارج النُّصُب أو ذُبحوا عليها... انتقلت فعاليَّات الثورة من مدينة إلى مدينة، والأماكن التي وصلتها أخيرًا لما سمعوه عمَّا حدث من قبل حملوا هذه الأعمال إلى درجات أكثر... فظاعة من باقي المنتقمين... كوركيا أعطت أوَّل مثال على هذه الجرائم...

جرائم الانتقام التي يُمارسها المحكومون (الذين لم يروا أيَّ مُعاملة مُنصِفة، أو في الحقيقة لم يروا إلَّا العنف من حكَّامهم) و... على الوحشيَّة وعدم الرحمة التي يتحَوَّل إليها الرجال بعواطفهم... في أثناء ذلك هلك الجزء المُعتدل من المواطنين بين الاثنين [الفريقين المُتحاربين]... انتفض العالم اليونانيُّ كلُّه لهذا[٥٦].

في كتابه «الجمهوريَّة» جعل أفلاطون الناطق بلسانه سقراطَ يحكم على ديمقراطيَّة أثينا المُتباهية أنَّها فوضى من العنف الطبقيِّ، والانحدار الثقافيِّ، والانحلال الأخلاقيِّ. المُؤيِّدون للديمقراطيَّة رفضوا الاعتدال بازدراء على أنَّه نخر للرجولة... إهانة، هذا ما يُطلقونه على التهذيب، ويُسمُّون الفوضى حرِّيَّة، والتبديد فخامة، والوقاحة شجاعة... الأب يعتاد أن يهبط لمستوى أبنائه ويخافهم، والابن أن يكون على نفس مستوى أبيه ليس لديه أيُّ خجل أو خوف من أبويه... المعلِّم يطري تلاميذه ويخاف منهم، والتلاميذ يُبغضون معلِّميهم وأسيادَهم... لا يرغب الكبار أن يُنظر إليهم على أنَّهم عابسون ومُتسلِّطون، ولذلك فهم يقلِّدون الشباب... ولا يجب عليَّ أن أنسى المساواة بين الجنسين في علاقتهما بعضهما ببعض... المواطنون يغضبون بلا صبر من أيِّ لمسة من السلطة، وعلى

نحو مُستفيض... وتوَقَّفوا عن الِاهتمام بالقوانين، مَكتوبة أو غير مَكتوبة... وهذه هي البداية الواضحة والرائعة التي تنبع منها الدكتاتوريَّة [الطاغية]... الزيادة المُفرطة في أيِّ شيء تسبِّب ردَّ فعل في الاتِّجاه العكسيِّ... الدكتاتوريَّة نتيجة طبيعيَّة للديمقراطيَّة، الأشكال الأكثر تفاقمًا للاستبداد والعبوديَّة تخرج من أكثر صور الحرِّيَّة تطرُّفًا[٥٧].

بحلول الوقت الذي مات فيه أفلاطون (٣٤٧ قبل الميلاد) كانت تحليلاته العدائيَّة للديمقراطيَّة في أثينا تقترب من تأكيد واضح يُقدِّمه التاريخ. استعادت أثينا ثراءها، ولكن هذه المرَّة كان ثراء تجاريًّا بدلًا من ثراء عقاريٍّ، الصنَّاع والتجَّار والمصرفيُّون كانوا على رأس التلِّ الذي تمَّت إعادة ترتيبه. نشب عن التغيير صراع قويٌّ على المال، جشع (pleonexia) كما سمَّاه اليونانيُّون ـ رغبة لا تنقطع في المزيد والمزيد. مُحدِثو النعمة (neoplutoi) بنوا منازل مبهرجة، وزيَّنوا نساءهم بثياب وحليٍّ غالية، ودلَّلوهنَّ بالعشرات من الخدم، وتنافسوا فيما بينهم في الولائم التي أبهجوا فيها ضيوفهم.

اتَّسعت الفجوة بين الأغنياء والفقراء، وأصبحت أثينا مُنقسمة إلى «مدينتين... مدينة للفقراء، وأخرى للأغنياء، كلٌّ منهما في حرب مع الأخرى»[٥٨]. كما وصفها أفلاطون.

خطَّط الفقراء لسلب الأغنياء من خلال التشريعات والضرائب والثورة، وجهَّز الأغنياء أنفسهم للدفاع ضدَّ الفقراء. أعضاء بعض المنظَّمات الأوليجاركيَّة لهم قسم رسميٌّ، يذكره أرسطو: «سأكون خصمًا للشعب» (يقصد العامَّة من الشعب)، وفي المجلس سأضرُّهم بقدر استطاعتي»[٥٩]. كما كتب - أي سقراط - نحو ٣٦٦ قبل الميلاد: «أصبح الأغنياء انطوائيِّين جدًّا وغير أسوياء، لدرجة أنَّ أولئك الذين لهم مُمْتلكات يفضِّلون أن يرموا ممتلكاتهم في البحر على أن يعطوها للمحتاجين، بينما لن يكون الفقراء سعداء بالعثور على كنز كما ستكون سعادتهم بالاستحواذ على أملاك الأغنياء!»[٦٠]. استحوذ المواطنون الأشد فقرًا على مجلس النواب، وبدأوا في التصويت على أن تصبح أموال الأغنياء في خزائن الدولة، ليتمَّ إعادة توزيعها على الشعب من خلال مشروعات وإعانات حكوميَّة. استهلك السياسيُّون كلَّ طاقاتهم الإبداعيَّة لمحاولة اكتشاف مصادر جديدة للإيرادات العامَّة.

في بعض المدن كان توزيع الثروة مباشرًا أكثر من ذلك؛ المدينون في ميتيليني ذبحوا دائنيهم بشكل جماعيٍّ، الديمقراطيُّون في أرجوس انقضُّوا على الأغنياء وقتلوا المئات منهم وصادروا أملاكهم، والعائلات المالكة للأموال

في الولايات اليونانيَّة التي تعدُّ في الظروف العاديَّة عدائيَّة قدَّموا مساعدات سرِّيَّة بعضهم لبعض ضدَّ عامَّة الثوَّار، الطبقات الوسطى، وكذلك الأغنياء بدأوا يفقدون ثقتهم في الديمقراطيَّة؛ لأنَّها تُعطي سلطة للحسد، وفقد الفقراء ثقتهم فيها؛ لأنَّها مُساواة مُزيَّفة في التصويت يبطل معناها التفاوت الواسع في الثراء. هذه المَرارة المُتزايدة من الصراع الطبقي جعلت اليونان مُنقسمة داخليًّا وخارجيًّا - أيضًا - عندما انقضَّ فيليب المقدوني عليها في ٣٣٨ قبل الميلاد، والعديد من اليونانيِّين الأغنياء رحَّبوا بقدومه؛ لأنَّه أفضل من الثورة. واختفت الديمقراطيَّة الأثينيَّة تحت الدكتاتوريَّة المَقدونيَّة[٦١].

تصوير أفلاطون للتطوُّر السياسي على أنَّه تسلسل من المَلكيَّة إلى الأرستقراطيَّة إلى الديمقراطيَّة، ثمَّ الدكتاتوريَّة، كان له مثال آخر في تاريخ روما. أثناء القرن الثاني والثالث قبل المسيح قامت أوليجاركيَّة رومانيَّة بتنظيم سياسة خارجيَّة وجيش مدرَّب، وغزت واستغَلَّت منطقة البحر المتوَسِّط. الثروة التي تمَّ الحصول عليها تمَّ امتصاصها من قبل النبلاء، والتجارة التي تطوَّرت رفعت الطبقة المتوَسِّطة للترف والفخامة. جُلِب اليونانيُّون المهزومون والشرقيُّون والأفارقة ليعملوا كعبيد في

اللاتيفونديا[١]؛ والفلاَّحون الأصلِيُّون بعد أن تمَّ إخراجهم من أراضيهم انضمُّوا إلى الطبقة الكادحة المُتزايدة من العمَّال في المدن، ليستمتعوا بالحسنة الشهريَّة من الحبوب التي وفَّرها كايوس جراكوس للفقراء في عام ١٢٣ قبل الميلاد. عاد القادة العسكريُّون وحكَّام المحافظات محمَّلين بالغنائم لأنفسهم وللطبقة الحاكمة، أصحاب الملايين تضاعفوا، واستُبدِلَتِ الأراضي بالأموال القابلة للنقل كمصدر وأداة للسلطة السياسيَّة. وسارعت الفصائل المُتنافسة إلى شراء الأصوات والمرَشَّحين بالجملة، ففي عام ٥٣ قبل الميلاد تلَقَّت مجموعة من المُصوِّتين مبلغ مليون سيستر مُقابل دعمها![٦٢] عندما فشل المال، كان القتل مُتاحًا؛ المواطنون الذين وضعوا أصواتهم في المكان الخاطئ كانوا أحيانًا يُضرَبون حتَّى يُوشكوا على الموت أو تُحرق منازلهم. العصور القديمة كلُّها لم تعرف حكومة بهذا الثراء والقوَّة والفساد[٦٣]. الأرستقراطيُّون أشركوا بومبي؛ ليضمنوا استمرار صعودهم، والعوامُّ وضعوا أسهمهم مع قيصر، وحلَّت مَصاعب المعارك محلَّ مزادات النصر، وفاز في النهاية قيصر، وأسَّس دكتاتوريَّة شعبيَّة، فقتله الأرستقراطيُّون، ولكنَّهم تقبَّلوا دكتاتوريَّة حفيده وابن زوجته أغسطس (٢٧ قبل الميلاد). انتهت الديمقراطيَّة، واستُرِدَّتِ

[١] أملاك كبيرة من الأراضي يعمل فيها عدد كبير من المُستأجرين لدى مالك واحد غنيٍّ.

المَلَكيَّة، ودارت بذلك العجلة الأفلاطونيَّة دورة كاملة.

يُمكننا أن نستنتج من هذه الأمثلة الكلاسيكيَّة أنَّ الديمقراطيَّة القديمة التي تنخر فيها العبوديَّة والفساد والحروب لم تكن جديرة باسمها. في أمريكا كان للديمقراطيَّة قاعدة أوسع، لقد بدأت بالامتياز الذي قدَّمه الإرث البريطانيُّ: القانون الأنجلوساكسونيُّ، من الوثيقة العظمى (Magna Carta) وما تلاها، دافع عن المواطنين ضدَّ الدولة، والبروتستانتيَّة التي مهَّدت الطريق للحرِّيَّة الدينيَّة. الثورة الأمريكيَّة لم تكن فقط ثورة من شعب مُستعمَر على حكومة بعيدة، إنَّما كانت انتفاضة للطبقة الوسطى من السكَّان الأمريكيِّين ضدَّ الأرستقراطيَّة. قام بتسهيل الثورة وجود الفائض المُتاح من الأراضي الحرَّة والحدِّ الأدنى من التشريعات. الرجال الذين امتلكوا الأراضي التي حرثوها وسيطروا - في حدود الطبيعة - على الظروف التي عاشوا فيها كان لهم قدم اقتصاديَّة تدعم حرِّيَّتهم السياسيَّة؛ شخصيَّاتهم وخصالهم كانت لها جذور في الأرض. لقد كانوا هم الرجال الذين جعلوا جيفرسون رئيسًا... جيفرسون الذي كان على القدر نفسه من التشكُّك كفولتير، ومن الثوريَّة كروسُّو... حكومة بأقلِّ تدخل كانت مناسبة تمامًا لتحرير الطاقات المؤمنة بالفرديَّة التي حوَّلت وجه أمريكا

من مكان برِّيٍّ إلى جنَّة مادِّيَّة، ومن حال الطفل والقاصر إلى المُنافس وحامي أوروبا الغربيَّة. وبينما حسَّن الانعزال الريفيُّ حرِّيَّة الأفراد، وفَّر الانعزال الدوليُّ حرِّيَّة وأمنًا بين البحار التي حمَت أمريكا. هذه العوامل ومئات من العوامل الأخرى وفَّرت لأمريكا أكثر الديمقراطيَّات التي شهدها التاريخ عمقًا وشمولًا.

إنَّ كثيرًا من هذه الظروف التكوينيَّة اختفى الآن، العزلة الفرديَّة اختفت مع نمو المدن، الاستقلال الفرديُّ - أيضًا - اختفى مع اعتماد العمال على الأدوات ورأس المال الذي لا يمتلكونه، وعلى الظروف التي لا يستطيعون السيطرة عليها، أصبحت الحروب أكثر استهلاكًا والأفراد لا سبيل لهم لفهم أسبابها ولا الهروب من نتائجها، الأراضي المجَّانيَّة اختفت، مع أنَّ امتلاك المنازل انتشر بالحدِّ الأدنى من الأراضي التي يُمكنها توفير ذلك. التاجر المُنفرد الذي يعمل لحساب نفسه أصبح مُحاصَرًا بالمُوزِّعين الكبار، وربَّما يردِّد شكوى ماركس من أنَّ كلَّ شيء أصبح في سلاسل. الحرِّيَّة الاقتصاديَّة، حتَّى في الطبقات المتوَسِّطة تصبح استثناءً للقاعدة العامَّة أكثر فأكثر مع الوقت، ممَّا يجعل الحرِّيَّة السياسيَّة عمليَّة تظاهر مُواسِيَة. وكلُّ هذا لم يحدث (كما ظننَّا في شبابنا الحامي) بسبب

فساد الأغنياء، لكنَّه حدث من خلال تطَوُّرٍ حتمِيٍّ للمنظومة الاقتصاديَّة لا يحَرِّكه طرف بعينه، وبسبب طبيعة الإنسان. كلُّ تقَدُّم في التعقيد الاقتصاديِّ يضع علاوة إضافيَّة على القدرات المُتفَوِّقة، ويقوي تركيز الثروة والمسؤوليَّة والسلطة السياسيَّة.

إنَّ الديمقراطيَّة هي الصورة الأصعب من بين كلِّ صور الحكم، لأنَّها تتطَلَّب أكبر اتِّساع للذكاء، ولقد نسينا أن نحرص على أن نجعل أنفسنا أذكياء عندما أصبحنا نحن في السيادة. انتشر التعليم، لكنَّ الذكاء مُتخَلِّف دائمًا لخصوبة البسطاء. علَّق أحد الساخرين بأنَّه «يجب ألَّا يتوَّج الجهل فقط؛ لأنَّ هناك الكثير منه». على الرغم من ذلك، فالجهل لا يُتوَّج طويلًا؛ لأنَّه سرعان ما يلقي بنفسه ليُستخدم في التلاعب من قِبل القوى التي تحرِّك الرأي العامَّ. يُمكن أن يكون قول لينكولن صحيحًا في أنَّك «لا يُمكنك خداع كلِّ الناس طوال الوقت». لكن يُمكنك خداع عدد كافٍ من الناس في دولة كبيرة لتحكمها.

هل الديمقراطيَّة مسؤولة عنِ التراجع الحالِيِّ للفنِّ؟

هذا التراجع بالطبع ليس مُطلقًا؛ إنَّه مسألة حكم ذاتيٍّ، وهؤلاء من بيننا الذين تقشَعِرُّ أبدانهم من تجاوزاته – بقع

الألوان التي لا تعني شيئًا ومجموعات الأنقاض التي توضع بجوار بعضها ونشازه وضوضائه التي تخلو من التجانس – محبوسون في ماضيهم ولا يمتلكون الشجاعة الكافية للتجربة دون شكٍّ. الذين ينتجون مثل هذا الهُراء لا يُخاطبون به الجمهور العامَّ – الذي يزدريهم لكونهم مَعاتيه أو مُنحرفين أو مُشعْوِذين – إنَّما يُخاطِبون به المشترين السذَّج من الطبقة الوسطى المسحورين بالمزادات والمفتونين بالجديد، مهما كان مشوَّهًا. الديمقراطيَّة مسؤولة عن هذا الانهيار فقط في عدم قدرتها على توفير معايير وأذواق بديلة لتلك التي حافظت عليها الأرستقراطيَّة للخيال وفرديَّة الفنَّانين في حدود التواصل المعقول، وتنوير الحياة، وانسجام الأجزاء والتسلسل المنطقيِّ الذي يُمكن رؤيته للأجزاء في الكلِّ المُتجانس. إذا كان يبدو أنَّ الفنَّ الآن يفقد نفسه للغرائب، فذلك ليس فقط لأنَّه يتمُّ تبسيطه ليتماشى مع ذوق الحشود أو بسبب هيمنتها عليه؛ لكن لأنَّه استنفد كلَّ المُمْكنات في المدارس والطرق القديمة، وهو الآن يتعَثَّر في طريقة للبحث عن أنماط وصور وقواعد وفروع جديدة.

باستنفاد كلِّ الاستدلالات المُمْكنة، نصل إلى أنَّ الديمقراطيَّة قدَّمت أقلَّ الأضرار وأكثر الفوائد بالمقارنة مع

كلِّ صور الحكم الأخرى. لقد أعطت للوجود البشري حيويَّة وصداقة حميمة تفوق كلَّ مساوئها وعيوبها. لقد أعطت للفكر والعلم والمشاريع المُستقلَّة الحرِّيَّة الضروريَّة لتشغيلهم ونمُوِّهم. وحطَّمت حواجز الامتيازات والطبقيَّة، وفي كلِّ جيل أخرجت قدرات من كلِّ طبقة، ومن كلِّ مكان. في إطار الحافز الذي تقدِّمه الديمقراطيَّة كانت أثينا وروما أكثر المدن إبداعًا في التاريخ، وحقَّقت أمريكا في قرنين من الزمان وفرة لنسبة كبيرة من السكان الذين زاد عددهم بشكل غير مسبوق. لقد كرَّست الديمقراطيَّة الآن نفسها وبكلِّ حزم لنشر تنوير التعليم وللحفاظ على الصحَّة العامَّة. إذا أمكن تحقيق المساواة في الفرص التعليميَّة تكون الديمقراطيَّة حينئذ مُبرَّرة ومُستساغة؛ لأنَّ الحقيقة المهمة التي تختبئ تحت الشعارات هي أنَّ الناس، ولو لم يكونوا متساويين، فإنَّ الوصول للتعليم والفرص يمكن أن يكون مُتساويًا. حقوق الإنسان ليست حقوقًا في المراكز والسلطة، إنَّما حقوق في القدرة على الدخول إلى أيِّ مجال يُمكنه أن ينمِّي ويختبر صلاحيته للمراكز والسلطة. الحقوق ليست عطايا إلهيَّة أو طبيعيَّة وإنَّما امتياز من الجيِّد للمجموعة أن يُتاح لأفرادها.

الديمقراطيَّة في إنجلترا والولايات المُتَّحدة والدنمارك والنرويج والسويد وسويسرا وكندا اليوم أسلم ممَّا كانت عليه

في أيِّ وقت مضى. لقد دافعت عن نفسها بشجاعة وقوَّة ضد اعتداءات الدكتاتوريَّات الخارجيَّة، ولم تستسلم للدكتاتوريَّات الداخليَّة. لكن إذا استمَرَّت الحروب في امتصاصها والسيطرة عليها أو إذا كانت الرغبة في حكم العالم تتطلَّب مؤسَّسة عسكريَّة ضخمة والاستيلاء على موارد كثيرة، يُمكن لحرِّيَّات الديمقراطيَّة أن تخضع واحدة تلو الأخرى لقواعد الأسلحة والنزاعات. إذا فرَّقتنا الحروب العرقيَّة والطائفيَّة إلى معسكرات مُتعاديَّة وتحَوَّلت الحُجَج السياسيَّة إلى كراهية عمياء، سيقوم أحد الطرفين بإسقاط الحملات الانتخابيَّة بحكم السلاح. إذا فشل اقتصادنا الحرُّ في توزيع الثروة بالبراعة نفسها التي خلقها بها سيكون الطريق للديكتاتوريَّة مفتوحًا لأيِّ رجل يستطيع بشكل مُقنِع أن يعِد الجميع بالأمان، وسيقوم حكم عسكريٌّ بابتلاع العالم الديمقراطيِّ بشعارات برَّاقة.

التاريخ والحرب

الحربُ ثابتٌ من ثوابت التاريخ التي لم تُنهها الحضارة أو الديمقراطيَّة. خلال الـ ٣٤٢١ سنة الماضية من التاريخ المُسجَّل هناك ٢٦٨ سنة فقط لم تشهد حربًا. لقد أقررنا الحرب كما هي الآن ذروة أشكال التنافس والانتخاب الطبيعي بين البشر. قال هرقليطس(Polemos pater panton)، المنافسة هي أصل كلِّ شيء، والمنبع القوي للفِكَر والابتكارات والمؤسَّسات والدول. السلام حالة اتِّزان غير مُستقِرَّة لا يُمكن الحفاظ عليها إلا بِهَيمنة مُعترَفٍ بها أو بمساواةٍ في السلطة.

أسباب الحرب هي نفسها أسباب التنافس بين الأفراد: نزعة التمَلُّك وحبُّ القتال والكبرياء، والرغبة في الطعام وامتلاك الأراضي والموادِّ الخام والوقود والسيطرة والسيادة. الدولة تمتلك غرائزنا بدون قيودنا. يرضخ الفرد للقيود المُلقاة

على عاتقه بالأخلاق والقانون، ويوافق على استبدال القتال بالمشاورة؛ لأنَّ الدولة تضمن له الحماية الأساسيَّة في حياته، وممتلكاته، وحقوقه القانونيَّة. الدولة نفسها لا تتبنَّى أو تقرَّ أيَّ تقييد كبير، إمَّا لأنَّها قويَّة بما يكفي لتحَدِّي أيِّ تدَخُّل في إرادتها، أو لأنَّه لا توجد دولة كبرى تقدِّم لها الحماية الأساسيَّة اللَّازمة، ولا يُوجد قانون دوليٌّ أو أخلاقيٌّ له سلطة فعَّالة.

يُعطي الكبرياء للفرد قوَّة إضافيَّة في منافسات الحياة، وتعطي النزعة القوميَّة للدولة قوَّة إضافيَّة في الدبلوماسيَّة والحرب. حين حرَّرت دول أوروبا نفسها من السيطرة والحمايَّة البابويَّة، أخذت كلُّ دولة تشجِّع النزعة القوميَّة داخل شعبها كتكملة لجيشها وقوَّاتها البحريَّة. كانت الدولة إذا تنبَّأت بنزاع مع أيِّ بلد بعينه تُحرِّض شعبها على كراهية هذا البلد وتصوغ الشعارات للوصول بتلك الكراهية إلى نقطة قاتلة، وفي الوقت ذاته تؤكِّد على حبِّها للسلام.

إنَّ تجنيد الأرواح للإرهاب العالميِّ لم يحدث بهذا الشكل إلَّا في أكثر النزاعات عنصريَّة، وكان نادرًا ما يتمُّ اللُّجوء إليه في أوروبا في الفترة ما بين الحروب الدينيَّة في القرن السادس عشر وحروب الثورة الفرنسيَّة. أثناء تلك الفترة، كان مسموحًا لشعوب الدول المتنازعة أن يحترم بعضهم إنجازات وحضارة

بعضٍ، تجوَّل الإنجليز بأمان في فرنسا، بينما كانت فرنسا في حالة حرب مع إنجلترا، واستمرَّ احترام الفرنسي وفريدريك الأكبر بعضهما لبعض بينما كانا يتقاتلان في حرب السبع سنوات. في القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت الحرب منافسة بين الأرستقراطيَّات وليس الشعوب. في القرن العشرين، جعل تحسين الاتِّصالات والمواصلات والأسلحة ووسائل التلقين العقائديِّ من الحرب صراعًا بين الشعوب، يشارك فيها المحاربون والمدنيُّون أيضًا، ويُحَقَّق فيها النصر من خلال التدمير الشامل للممتلكات والحياة. حرب واحدة الآن باستطاعتها تدمير عمل قرون في بناء المدن، وخلق الفنِّ، وتنمية عادات الحضارة. في حالة تعزية اعتذاريَّة، تعمل الحرب الآن على تعزيز العلم والتكنولوجيا التي قد توسِّع اختراعاتها المميتة الإنجازات المادِّيَّة للسلام إن لم تُنسَ في عوَز عالميٍّ وبربريَّة.

لقد سخر الجنرالات والحكام (باستثناء استثناءات نادرة مثل أشوكا وأغسطس) في كلِّ قرن من كراهية الفلاسفة الخجولة للحرب. في التفسير العسكريِّ للتاريخ، تُعتبر الحرب هي الحكم النهائي ويتقبَّلها الجميع باعتبارها طبيعيَّة وضروريَّة باستثناء الجبناء والسذَّج.

ما الذي منع فرنسا وإسبانيا من أن يصبحا محمَّديِّين غير انتصار شارل مارتيل في تورز عام ٧٣٢؟

ما الذي كان سيحدث لتراثنا الكلاسيكيِّ إن لم يكن محمِيًّا بالأسلحة ضدَّ اجتياح التتار والمغول؟

نحن نسخر من الجنرالات الذين يموتون في الفراش (مُتناسين أنَّهم أكثر قيمة وهم على قيد الحياة منهم وهم أموات). ولكنَّنا نبني لهم تماثيل حين يُعيدون لنا هتلر أو جنكيز خان! إنَّه لشيء يرثى له - يقول الجنرال - أن يموت كثير من الشباب في المعارك، ولكن يموت في حوادث السيارات عدد أكبر ممَّن يموت في الحرب، والكثير منهم يشاركون في أعمال الشغب بسبب عدم الانضباط؛ إنَّهم بحاجة إلى منفذ للتنافسيَّة وحبِّ المغامرة لديهم وكل لهم من الروتين المملِّ، إذا كانوا حتما سيموتون عاجلًا أم آجلًا، فلماذا لا ندعهم يموتون من أجل وطنهم في خدر المعارك وهالة المجد؟ حتى الفيلسوف، إذا كان يعرف التاريخ، سيعترف أن فترات السلام الطويلة قد تضعف قدرة الأمَّة القتاليَّة. في ظلِّ القصور الحاليِّ للقانون الدوليِّ والشعور العالميِّ، يجب أن تتأهَّب الأمَّة للدفاع عن نفسها في أيِّ لحظة، وعندما يتعَلَّق الأمر بمصالحها الأساسيَّة يجب السماح لها باستخدام أيِّ وسيلة تراها ضروريَّة لبقائها.

لا يجب الالتفات للوصايا العشر حينما تكون حماية النفس على المحكِّ.

يكمل الجنرال حديثه: من الواضح أنَّه يجب على الولايات المُتَّحدة اليوم أن تتحَمَّل المهمَّة التي أدَّتها بريطانيا العظمى بشكل جيِّد في القرن التاسع عشر: حماية الحضارة الغربيَّة من الخطر الخارجيِّ. أعلنت الحكومات الشيوعيَّة، المسلَّحة بمعدَّلات المواليد القديمة والأسلحة الجديدة، مرارًا وتكرارًا، عزمها على تدمير اقتصاد واستقلال الدول غير الشيوعيَّة. إنَّ الدول الشابَّة التي تتوق لقيام الثورة الصناعيَّة لكي تمنحهم الثروة الاقتصاديَّة والقوَّة العسكريَّة مُنبهرون بتحَوُّل روسيا السريع إلى الصناعة في ظلِّ الإدارة الحكوميَّة؛ قد تكون الرأسماليَّة الغربيَّة أكثر إنتاجيَّة في النهاية، ولكنَّها تبدو أبطأ في التنمية، والمحافظون الجُدُد المُتلهِّفون إلى السيطرة على موارد ورجال ولاياتهم يكونون فريسة مُحتملة للدعاية الشيوعيَّة والتسَلُّل والتخريب. ليس الأمر سوى مسألة وقت، ما لم يتمَّ إيقاف هذه العمليَّة المنتشرة، حتى تكون آسيا كلُّها تقريبًا وأفريقيا وأمريكا الجنوبيَّة تحت القيادة الشيوعيَّة، وتحاط أستراليا ونيوزيلندا وأمريكا الشماليَّة وأوروبا الغربيَّة بالأعداء من كلِّ جانب. تخيَّل تأثير حالة كهذه على اليابان

والفلبِّين والهند، وعلى الحزب الشيوعيِّ القويِّ في إيطاليا؛ تخيَّل تأثير انتصار الشيوعيَّة في إيطاليا على الحركة الشيوعيَّة في فرنسا. سوف تُترك بريطانيا العظمى وإسكندنافيا وهولندا وألمانيا الغربيَّة تحت رحمة قارة شيوعيَّة بشكل ساحق. هل يجب على أمريكا الشماليَّة الآن، وهي في أوج قوَّتها ومجدها، أن ترضى بمستقبل كهذا باعتباره أمرًا لا مفرَّ منه، وأن تتنحَّى داخل حدودها، وتدع نفسها لتُحاط بدول معاديَّة تتحَكَّم في إمكانيَّة حصولها على الموادِّ والأسواق، وتجبرها - كأيِّ شعب محاصَر - على تقليد أعدائها وتأسيس دكتاتوريَّة حكوميَّة خلال جميع مراحل حياتها التي كانت حرَّة ومُثيرة من قبل؟ هل ينبغي على قادة أمريكا أن يراعوا فقط عزوف هذا الجيل المُنغمس في اللَّذَّات عن مواجهة مشكلة كبيرة كهذه، أم يجب عليهم أن يراعوا - أيضًا - ما ستتمنَّى أجيال أمريكا القادمة لو أنَّ هؤلاء القادة قد فعلوه؟ أليس من الحكمة أن تقاوم في الحال، أن تشنَّ الحرب على العدو، أن تحارب على أرضٍ أجنبيَّة، أن تضحِّي إذا اقتضى الأمر بحياة مائة ألف من الأمريكيِّين، وربَّما بمليون من المدنيِّين، فقط لتترك أمريكا حرَّة تعيش حياتها في أمنٍ وحرِّيَّة؟ أليست هذه السياسة بعيدة النظر في توافق تامٍّ مع دروس التاريخ؟

يجيب الفيلسوف: بلى، والنتائج المدمِّرة ستكون في توافق تامٍّ مع التاريخ، إلَّا أنَّها ستتضاعف بما يتناسب مع ازدياد عدد القوات المُستخدَمة وقدرتها على التنَقُّل، والتدمير غير المسبوق للأسلحة المُستخدَمة. هناك شيء أكبر من التاريخ. في مكانٍ ما، في وقتٍ ما، باسم الإنسانيَّة، يجب أن نتحَدَّى آلافًا من سوابق الشر، وأن نجرؤ على تطبيق القاعدة الذهبيَّة على الأمم، كما فعل الملك البوذيُّ أشوكا[١] (٢٦٢ قبل الميلاد)[٦٤]. أو على الأقلِّ نفعل ما فعله أغسطس عندما دعا تيبيريوس[٢] أن يكفَّ عن مواصلة غزو ألمانيا (٩م) [٦٥]. دعونا نرفض، مهما كلَّفنا الأمر، أن يكون في الصين مائة هيروشيما أخرى. قال إدموند بيرك: «الشهامة في السياسة لا يندر أن تكون أصدق حكمة، والإمبراطوريات العظيمة وأصحاب العقول الضعيفة ينهاران معًا»[٦٦]. تخيَّل رئيسًا أمريكيًّا يقول لقادة الصين وروسيا:

---

[١] الإمبراطور أشوكا (Ashoka): (٣٠٤ ق.م. – ٢٣٢ ق.م.) من أعظم ملوك الهند في التاريخ وأهمِّ حكام الإمبراطوريَّة الماوريَّة، قام ببناء أعمدة أشوكا التي نقش عليها أوامر الإمبراطوريَّة الماوريَّة وله دور كبير في ترسيخ وحدة بلاد شبه قارَّة الهند، وفي نشر تعاليم البوذيَّة في الهند وخارجها.

[٢] تيبريوس قيصر (Tiberius): (٤٢ ق.م. – ٣٧م) الإمبراطور الرومانيُّ الثاني، أبعد اليهود وقتًا ما عن روميَّة ولكنَّه ألغى أمره فيما بعد وعوض عليهم بسبب قساوة حكَّام الأقاليم، وفي ملكه حكم اليهودية كوالين فاليريوس كراتوس وبيلاطس البنطي.

«لو أنَّه يجب علينا اتِّباع المسار المُعتاد للتاريخ، فعلينا أن نشنَّ الحرب عليكم خوفًا ممَّا قد تفعلوه بعد جيل من الآن! أو يجب علينا أن نتعَلَّم من السوابق الكئيبة لتحالف ١٨١٥ المُقدَّس[١]، وأن نكرِّس ثروتنا وأصحَّ شبابنا لقمع أيِّ ثورة ضدَّ النظام القائم في أيِّ مكان. ولكنَّنا على استعداد أن نجرِّب نهجًا جديدًا. نحن نحترم شعوبكم وحضاراتكم التي تُعدُّ واحدة من أكثر الحضارات إبداعًا في التاريخ. سنحاول فهم شعوركم ورغبتكم في تطوير مؤسَّساتكم بدون خوف من الاعتداء. يجب علينا ألَّا نسمح لمخاوفنا المُتبادلة أن تقودنا نحو الحرب؛ لأنَّ وحشيَّة أسلحتنا وأسلحتكم غير المسبوقة تزيد على الوضع عنصرًا غير مألوف في التاريخ. نحن نقترح أن نرسل إليكم ممَثِّلين لكي ينضمُّوا إلى ممَثِّليكم في مؤتمرٍ دائمٍ لتسوية اختلافاتنا، ووقف الأعمال العدائيَّة والتخريب، والحدِّ من أسلحتنا. وفي أيِّ مكانٍ خارج حدودنا قد نتنافس فيه معكم على ولاء شعب ما، نحن على استعداد أن نخضع لانتخابات كاملة ونزيهة من قِبَل الشعب المعنيِّ. دعونا نفتح أبوابنا بعضنا لبعض، وننَظِّم التبادلاتِ الثقافيَّة التي ستُعزِّز

[١] تحالف بين روسيا والنمسا وبروسيا تمَّ توقيعه في مؤتمر فيينا بعد هزيمة نابليون. في الظاهر كان هدفه غرس القيم المسيحيَّة من المحبَّة والسلام في الحياة السياسيَّة الأوروبيَّة، ولكن عمليًّا استخدمه كليمنس فون مترنيش درعًا ضدَّ الثورة. تضامن ملوك الدول الثلاث معًا لمنع التأثيرات الثوريَّة - وخصوصًا من الثورة الفرنسيَّة - من دخول هذه الدول.

التقدير والتفاهم المُتبادلين. إنَّنا لا نخشى أن يزَحْزِح نظامُكم الاقتصاديُّ نظامَنا، ولا أنتم بحاجة للخوف من أن يزَحْزِح نظامُنا الاقتصاديُّ نظامَكم؛ فنحن نؤمن أنَّ كلَّ نظام سوف يتعَلَّم من الآخر، وسيكون قادرًا على العيش معه في تعاون وسلام. ربَّما يستطيع كلٌّ منَّا، مع الحفاظ على دفاعات كافية، أن ينَظِّم مُعاهدات عدم اللُّجوء للعنف والتخريب مع دول أخرى، وبهذه الاتِّفاقات قد يتشكَّل نظام عالميٌّ في ظلِّه تكون كلُّ أمَّة مُحتفظة بسيادتها وأصالتها، ولا يُقيِّدها سوى اتِّفاقيَّات عقدتها بمحض إرادتها. إنَّنا نطلب منكم أن تنضَمُّوا إلينا في هذا التحَدِّي للتاريخ، هذا العزم على نشر الكياسة والتحَضُّر في العلاقات بين الدول. إنَّنا نتعَهَّد بشرفنا أمام البشريَّة جمعاء أن نخوض هذه المجازفة بكلِّ إخلاص وثقة. إن خسرنا في المقامرة التاريخيَّة فلن تكون النتائج أسوأ من تلك التي يُمكن أن نتوَقَّعها من استمرار السياسات التقليديَّة، وإن نجحنا نحن وإيَّاكم فسنصبح جديرين بمنزلة في ذاكرة الامتنان البشريِّ لعِدَّة قرون من الزمان».

يبتسم الجنرال، يقول: «لقد نسيت كلَّ دروس التاريخ، وكلَّ طبيعة الإنسان التي شرحتها، بعض النزاعات جوهريَّة للغاية بحيث لا يُمكن حلُّها عن طريق التفاوض، وأثناء المُفاوضات

المطوَّلة (لو يُمكن للتاريخ أن يكون دليلنا) سيظهر التخريب. النظام العالميُّ لن يتحَقَّق من خلال اتِّفاق الشرف، وإنَّما عن طريق نصر حاسم للغاية تُحَقِّقه إحدى القوى العظمى التي ستكون قادرة على إملاء وإنفاذ قانونٍ دوليٍّ، كما فعلت روما بداية من أغسطس وحتَّى أوريليوس. إنَّ فواصل السلام السائد هذه غير طبيعيَّة واستثنائيَّة، وستنتهي قريبًا بتغييرات في توزيع القوَّة العسكريَّة. لقد أخبرتنا أنَّ الإنسان حيوانٌ تنافسيٌّ، وأنَّ دُوَلَهُ لا بدَّ أن تكون مثله، وأنَّ الانتخاب الطبيعيَّ الآن يعمل على المستوى الدوليِّ. لن تتَّحد الدول في تعاون أساسيٍّ إلَّا عندما تتعَرَّض بشكل مُشترك للهجوم من الخارج، ربَّما نحن الآن نتَّجه بلا هوادة نحو تلك الهضبة العالية من المنافسة، قد نتواصل مع أنواع طموحة على كواكب أو نجوم أخرى، بعد ذلك بوقت قصير ستكون هناك حربٌ بين الكواكب. عندئذٍ، وعندئذٍ فقط، سيتَّحد من على هذه الأرض».

النموُّ والاضمحلال

لقد عرَّفنا الحضارة على أنَّها «نظام اجتماعيٌّ يُعزِّز الإنتاج الثقافيَّ»[٦٧]. إنَّها نظام سياسيٌّ تؤمِّنه العادات والأخلاقيَّات والقانون، ونظام اقتصاديٌّ تؤمِّنه استمراريَّة الإنتاج والتبادل، إنَّها إبداع ثقافيٌّ من خلال توفير الحرِّيَّة والأدوات المناسبة للإبداع والتعبير واختبار الأفكار والاستمتاع بثمارها والرسائل والأعراف والفنون، إنَّها شبكة هشَّة ومُعقَّدة من العلاقات الإنسانيَّة يُضني بناؤها ويسهل نقضها.

لماذا كان حال التاريخ أنَّه حاوية مليئة بأطلال الحضارات؟ ولماذا يبدو وكأنَّه يخبرنا كما يفعل شيلاي في قصيدته «أوزيماندياس» أنَّ الموت هو مصير الأشياء جميعًا؟ هل يوجد في عمليَّة النموِّ والاضمحلال هذه أيُّ انتظام يُمكِننا أن نتنبَّأ مستقبل حضارتنا من مسار الحضارات السابقة؟

بعض الأرواح واسعة الخيال اعتقدت ذلك، حتَّى في التنبُّؤ بتفاصيل المستقبل. في قصيدته الرابعة يعلن فيرجيل أنَّه يومًا ما سيكون إبداع التغيير قدِ استُنفد، وسيعود العالم كلُّه بأدَقِّ تفاصيله إلى الحالة نفسها التي كان عليها في لحظة ما من العصور القديمة، وسواء كان هذا صدفة أو مقصودًا في تصميمه، إلَّا أنَّه عند تلك اللَّحظة وبسبب حتميَّة مصيره سيبدأ في تكرار ما كان عليه عند مثيلتها الأولى كما كانت تمامًا.

Alter erit tum Tiphys, et
altera quae vehat Argo

delectos heroas;
,erunt etiam altera bella

atque iterum ad
Troiam magnus mitte-
tur Achilles

«حينئذ ستكون هناك نسخة أخرى من [النبيِّ] تيفيس، وأرجو آخر سيحمل [جيسون والآخرون] من الأبطال المحبوبين؛ سيكون هناك – أيضًا – حروب أخرى، ونسخة أخرى من أخيل العظيم ستُرسل إلى تروي مرة أخرى»[٦٨]. وأصاب فريدريك نيتشه ضربًا من الجنون عندما ذهب برأيه إلى «التكرار اللَّامحدود».

لا يُوجد أيُّ رأي مهما كان في غاية الحماقة إلَّا وستجده في آراء فيلسوف ما.

يكرِّر التاريخ نفسه، لكن فقط في إطاره ومُجمَله. يُمكننا أن نتوَقَّع بعقلانيَّة أنَّه في المستقبل، كما كان في الماضي، ستعلو نفوذ دول جديدة، وستنحسر نفوذ دول أخرى، وأن حضارات جديدة ستبدأ بالرعي والزراعة، وستبدأ بالتوَسُّع في التجارة والصناعة، ثمَّ تزدهر بالأعمال الماليَّة، وأنَّ الأفكار (كما يعتقد فيكو[١] وكونت[٢]) ستمرُّ بالمراحل نفسها من تفسيرات غيبيَّة إلى أسطوريَّة إلى طبيعيَّة، إلى حدٍّ كبير، والنظريَّات الجديدة والاختراعات والاكتشافات والأخطاء ستحرِّك التيارات الفكريَّة، وأنَّ الأجيال الجديدة ستتمَرَّد على القديمة، وأنَّها ستمرُّ من التمَرُّد إلى الانصياع والتفاعل والاستجابة، وأنَّ التجارب الأخلاقيَّة ستفكُّ العادات، وسترعب المُستفيدين من هذه العادات القائمة، وأنَّ الحماسة للابتكار ستخمدها لامُبالاة الوقت. التاريخ يُعيد نفسه إجمالًا؛ لأنَّ الطبيعة البشريَّة تختلف مع سهولة البيئة أو خشونتها، والإنسان مُجهَّز بطرق

---

[١] جامباتستا ڤيكو (Giambattista Vico): (١٦٦٨ – ١٧٤٤) فيلسوف إيطاليٌّ، مؤرِّخ، وقانونيٌّ.

[٢] أوغست كونت (Auguste Comte): (١٧٩٨ – ١٨٥٧) عالم اجتماع وفيلسوف اجتماعيٌّ فرنسيٌّ، أكَّد ضرورة بناء النظريَّات العلميَّة المَبنيَّة على المُلاحظة، كما يُعَدُّ الأب الشرعيَّ والمُؤسِّس للفلسفة الوَضْعيَّة.

نمطيَّة للتعامل مع المواقف التي تتكرَّر، ومع الشعور بالجوع، والخطر، والرغبة الجنسيَّة. لكن في حضارة مُتطوِّرة ومُعَقَّدة يكون الأفراد أكثر اختلافًا وتمايُزًا من أقرانهم في مجتمع بدائيٍّ، وتوجَد مواقف مُتعدِّدة يكون لها تفاصيل جديدة تمامًا، وتتطَلَّب تعديل ردود الفعل التلقائيَّة، فتنحسر العادات وينتشر المنطق، وتصبح النتائج أكثر تعقيدًا وأصعب في توَقُّعها. لا يُوجد ما يؤكِّد أنَّ المستقبل سيُعيد تكرار الماضي. كلُّ سنة مُغامَرةٌ جديدةٌ.

بعض العقول العظيمة حاولت أن تحدَّ انتظام التاريخي الواسع في نماذج مُحكمة. مؤسِّس الاشتراكيَّة الفرنسيَّة الكونت كلود هنري دي سان سيمون دورفروا[١] (١٧٦٠ – ١٨٢٥) قسَّم التاريخ والمستقبل إلى تعاقُب من فترات «أساسيَّة» وأخرى «نقديَّة»:

قانون التطَوُّر البشريِّ... يكشف لنا حالتين متمايزتين ومتعاقبتين؛ أولاهما: الحالة الأساسيَّة التي يكون فيها كلُّ التفاعلات البشريَّة مُقسَّمة ومُتوَقَّعة ومُنظَّمة بنظريَّة عامَّة، والهدف من النشاط الاجتماعيِّ معرَّف بشكل واضح. أمَّا

[١] الكونت كلود هنري دي سان سيمون دورفروا (Claude Henri de Rouvroy, comte de Saint-Simon) فيلسوف فرنسيٌّ باريسيُّ النشأة، ولد عام ١٧٦٠م، اشتهر بأنَّه يميل إلى مبدأ تدَخُّل الدولة في الحياة الاقتصاديَّة.

الفترة الأخرى فهي فترة نقديَّة، فيها ينقطع كلُّ نشاط المجتمع الفكريِّ، وكلُّ الأفعال المُشتركة، وأيُّ تعاون كان بين أفراد المجتمع، ولا يكون المجتمع في هذه الحالة سوى تكَتُّل من أفراد مُنفصلين في نزاع بعضهم مع بعض.

كلٌّ من هاتين الحالتين شغل مرحلتين من التاريخ، إحدى المراحل الأساسيَّة سبقت العصر اليونانيَّ الذي ندعوه عصر الفلسفة، بينما يجب علينا في حقيقة الأمر أن نسمِّيه عصر النقد. بعدها تظهر عقيدة جديدة، وتمرُّ ببعض المراحل المختلفة من التوضيح والاكتمال، وفي النهاية تصبح هي السلطة السياسيَّة في الحضارة الغربيَّة. تأسيس

الكنيسة بدأ عصرًا أساسيًّا جديدًا انتهى في القرن الخامس عشر عندما أشهر الإصلاحيُّون بقدوم عصر نقدِيٍّ جديد استمر حتَّى وقتنا الحالِيِّ... في العصور الأساسيَّة تمَّ حلُّ كلِّ المشاكل الأساسيَّة (الدينيَّة، والسياسيَّة، والاقتصاديَّة، والأخلاقيَّة) على الأقلِّ بشكل مؤقَّت، لكن سرعان ما يصل التقَدُّم الذي توَفِّره هذه الحلول تحت حماية المؤسَّسات التي أنتجتها إلى مرحلة تصير معها غير مناسبة، وتستدعي إبداعًا. العصور النقديَّة عصور من المُناظرات والاحتجاجات... وانتقاليَّة تستبدل الحالة القديمة بالشكِّ والفرديَّة واللَّامُبالاة بالمشاكل الكلِّيَّة...

في الفترات الأساسيَّة يكون الرجال مَشغولين بالبناء، بينما في الفترات النقديَّة يكونون مَشغولين بالهدم[٦٩].

سان سيمون كان يصدِّق أنَّ قيام الاشتراكيَّة سيجلب معه بداية عصر أساسيٍّ جديد من الإيمان المشترك والنظام والتعاون والاستقرار، إذا أثبتت الاشتراكيَّة أنَّها نظام حياة جديد يقدِّم حلولًا لما نحن فيه سيكون تحليل سان سيمون وتنبُّؤاته مبرَّرة.

أوسفالد شبينجلر[١] (١٨٨٠م - ١٩٣٦م) خالف مخطَّط سان سيمون بتقسيم التاريخ إلى حضارات مُنفصلة، كلُّ حضارة لها فترة حياتها المُستقلَّة التي تتكوَّن من أربعة مواسم مقسَّمة بشكل رئيس إلى فترتين: فترة من الجذب المركزيِّ المنظَّم الذي يوَحِّد الثقافة عبر كلِّ مراحلها في صورة فنِّيَّة مُتجانسة ومُنفردة، وفترة أخرى من الطرد المركزيِّ المُفكِّك الذي تتحَلَّل فيه العقيدة والثقافة في حالة من التشَتُّت والنقد، وتنتهي إلى فوضى من الفرديَّة والتشَكُّك والشذوذ الفنِّيِّ. وفي حين أن نظر سان سيمون نظرة للأمام إلى الاشتراكيَّة على أنَّها

---

[١] أوسفالد شبينجلر (Oswald Spengler): (١٨٨٠ - ١٩٣٦) مؤرِّخ وفيلسوف ألمانيٌّ كان مهتمًّا أيضًا بالرياضيَّات والعلم والفنِّ. أكثر ما اشتهر به هو كتابه «انحدار الغرب».

النتيجة الجدِّيَّة، نظر شبينجلر (كما فعل تاليران[١]) للخلف إلى الأرستقراطيَّة على أنَّها العصر الذي كانت فيه الحياة والأفكار مُتناسقة ومرَتَّبة وكوَّنا معًا قطعة فنِّيَّة حيَّة.

بالنسبة للتواجد الغربي يقع الخطُّ الفاصل نحو سنة ١٨٠٠م، على جانب من هذا الحدِّ الفاصل الحياة مُمْتلئة وواثقة من نفسها، كونها النموُّ النابع من داخلها في خطِّ تطوُّر واحد عظيم متَّصل من الطفل القوطي إلى جوته ونابليون، وعلى الجانب الآخر حياة خريفيَّة اصطناعيَّة لا جذور لها نعيشها الآن في مدننا الضخمة على صور ركَّبها العقل... ذلك الذي لا يفهم أنَّ هذه نتيجة ضروريَّة ولا فرار منها للتحوير والتعديل عليه أن ينسى كلَّ رغباته في أن يفهم التاريخ[٧٠].

في نقطة واحدة كان الكلُّ شيئًا واحدًا: وجود الحضارة وازدهارها وانحدارها واختفاؤها، أو مُكوثها على البحيرات الراكدة التي تركتها المياه المُتدَفِّقة.

ما أسباب التطَوُّر؟ وما أسباب الاندثار؟

لا يُوجد تلميذ واحد يأخذ فكرة القرن السابع عشر بجِدِّيَّة، فكرة أنَّ الدول نشأت من «عقود اجتماعيَّة» بين الأفراد

[١] شارل موريس تاليران (Charles-Maurice de Talleyrand): (١٧٥٤ - ١٨٣٨) دبلوماسيٌّ وقائد عسكريٌّ فرنسيٌّ.

وبعضهم أو بين الشعب والحكَّام. ربَّما أخذت معظم الدول (أقصد المجتمعات المنظَّمة سياسيًّا) صورها بسبب احتلال واحد منهم للآخر، وبسبب تأسيس سلطة مستمِرَّة للغالب على المغلوب من الدول، شكَّلت عقائده قوانينهم الأولى، وهذا بالإضافة إلى عادات الشعب خلقت صورة جديدة للنظام الاجتماعيِّ. بعض الدول في أمريكا اللاتينيَّة بدأت بهذه الطريقة بكلِّ وضوح. عندما نظَّم السادة أعمال رعيَّتهم ليستفيدوا من هبة طبيعيَّة ما (مثل أنهار مصر وآسيا) شكَّلت الرؤية الاقتصاديَّة والقدرة على توفير الاحتياجات أسسًا أخرى من أُسُس الحضارة. توَتُّر خطير بين الحكَّام والمحكومين يُمكنه أن يرفع النشاط الذِّهنيَّ والعاطفيَّ أعلى من الحركة البطيئة المُعتادة في القبائل البدائيَّة. مُحفِّز آخر على النموِّ يُمكن أن يأتي من أيِّ تغَيُّر يخلق تحدِّيًا في البيئة المحيطة[٧١]، مثل غزو خارجي أو نقص مُتواصل في نسبة الأمطار؛ تحدِّيات من النوع الذي يُمكن تخَطِّيه بتحسينات عسكريَّة أو إنشاء قنوات للرَّيِّ.

إذا حاولنا العودة خطوة أخرى إلى الوراء وتساءلنا ما الذي يحَدِّد ما إذا كان التحَدِّي سيتمُّ تخَطِّيه أم لا؟ الإجابة أنَّ هذا يحَدِّده وجود أو غياب أفراد مُبدعين ومُبادرين يمتلكون صفاء الذِّهن وقوَّة الإرادة (ما يُعتبر تقريبًا تعريف العبقريَّة) قادرين

على خلق مُواجهات فعَّالة للمواقف الجديدة (هذا هو تقريبًا تعريف الذكاء). إذا سألنا ما الذي يصنع فردًا مُبدعًا؟ فإنَّنا بذلك نتخَطَّى حدود التاريخ إلى علم النفس والبيولوجيا، إلى تأثيرات البيئة والمُقامرة وأسرار الكروموسومات. في كلِّ حالة يتمُّ فيها تخَطِّي التحَدِّي بنجاح (كما فعلت الولايات المُتَّحدة في ١٩١٧م و١٩٣٣م و١٩٤١م) إذا لم يستهلك التحَدِّي المُنتصر (كما حدث مع إنجلترا عام ١٩٤٥م) يرتفع مُستوى الصعوبة ومُستوى الأمَّة، ويجعلها هذا الانتصار أقدر على تخَطِّي تحَدِّيات قادمة.

إذا كانت هذه مصادر النموِّ، فما هي أسباب الاضمحلال؟ هل علينا أن نفترض مع شبينجلر وكثيرٍ غيره أنَّ كلَّ حضارة كائن حيٌّ وهبته الطبيعة بشكل غامض القدرة على التطَوُّر وحتميَّة الموت؟ من المُغري أن نحاول تفسير تطَوُّر المجموعات بتشبيهها بعلم الأعضاء أو الفيزياء، وأن نعزي التدهور الذي يحدث للمجتمعات إلى نوع من المحدوديَّة الموروثة مع طبيعة دين الحياة وطبيعتها الزائلة، أو إلى نوع من الاهتراء الذي تسَبِّبه قوًى داخليَّة. تشبيهات كهذه يُمكنها أن تُسقط أنوارًا مُؤقَّتةً، كأن نقارن الارتباطات بين الأفراد بالتجَمُّعات الخلويَّة، أو دورة الأموال بداية من البنك وعودة مرَّة أخرى

إليه بانقباض وانبساط عضلة القلب. لكن المجموعة ليست عضوًا تمَّت إضافته إلى الأفراد المُكوِّنين لها، ليس لها مخٌّ أو مَعِدَة خاصَّة بها، لا بدَّ أن تشعر وتفَكِّر بأدمغة وأعصاب أفرادها. عندما تنهار حضارة أو جماعة لا يكون هذا بسبب حدود غامضة لحياة المؤسَّسات، لكنَّه بسبب فشل نظامها السياسيِّ أو قيادتها الفكريَّة في أن تُقابل تحَدِّيات التغيير.

يُمكن أن تأتي التحَدِّيات من عشرات المصادر، ويُمكنها من خلال التكرار والتركيب أن تتضَخَّم شِدَّتها لتُصبح مُدمِّرة، يُمكن أن تنضب الأمطار أو الواحات وتترك الأرض عطشى إلى حدِّ الجفاف. التربة يُمكنها أن تُستهلك من زراعة سقيمة أو استعمال مُسرِف، استبدال العِمالة الحرَّة بالعبيد يُمكن أن يُقلِّل الحوافز الإنتاجيَّة تاركًا بذلك أرضًا لا تُحرَث ومدنًا لم تُطعم. تغيير في الأدوات أو الطرق التجاريَّة، كما حدث عند ركوب البحر أو غزو السماء، يُمكن أن يخلف وراءه مراكز الحضارة القديمة راكدة ومُتدَهْوِرة، كما حدث لبيزا وفينيسيا بعد ١٤٩٢م. يُمكن أن ترتفع الضرائب إلى حدِّ تثبيط العمالة المنتجة ورؤوس الأعمال المُستثمرة. الأسواق والموادُّ الخارجيَّة يُمكن أن تضيع في منافسة استثماريَّة، وإذا زادت الواردات على الصادرات يُمكن أن تنفد خزائن الدولة من

أغطيتها من المعدن النفيس. تركيز الثروة يُمكن أن يفجِّر الشعب في حرب عرقيَّة. ترَكُّز السكَّان والفقر في المدن الكبيرة يُمكن أن يضطر الحكومة للاختيار بين إضعاف الاقتصاد بالإعانات الحكوميَّة أو الوقوف في وجه خطر العصيان المدنيِّ والثورة.

ولأنَّ التفاوت يزداد في الاقتصادات النامية يُمكن أن يجد مجتمع ما نفسه مُقسَّمًا بين أقلِّيَّة مُتحضِّرة وأغلبيَّة من الرجال والنساء حظُّهم أسوأ - لظروف طبيعيَّة واجتماعيَّة - من أن يرثوا أو يتمَكَّنوا من أن يطَوِّروا في أنفسهم معايير الجودة والذوق. وبينما يزداد عدد هذه الأغلبيَّة تعمل هي كثقل ثقافيٍّ على الأقلِّيَّة؛ طريقة الأغلبيَّة في الحديث والارتداء والترفيه والشعور والحكم والأفكار التي ينشروها إليهم والبربريَّة التي تمارسها هذه الأغلبيَّة عليهم، كلُّ هذه صور للثمن الذي تدفعه الأقلِّيَّة لتحَكُّمها في الفرص التعليميَّة والاقتصاديَّة.

عندما ينتشر التعليم تفقد الأديان مِصداقيَّتها، ويتبقى لها اتِّباع خارجي دون أن يكون لها تأثير على السلوك أو الأمل. تصبح الحياة علمانيَّة أكثر فأكثر، مُتجاهلة التفسيرات والمخاوف الغيبيَّة. يفقد الكود الأخلاقي هالته وقوَّته عندما تنكشف طبيعته البشريَّة، وبإزالة المُراقبة والعقوبة الإلهيَّة عنه.

في اليونان القديمة حطَّم الفلاسفة الإيمان القديم بين الطبقات المُتعلِّمة، وفي كثير من مدن أوروبا الحديثة حقَّق الفلاسفة نتيجة مُشابهة. بروتاجوراس[١] يُصبح فولتير[٢]، وديوجين[٣] يُصبح روسُّو[٤]، وديموقريطس يُصبح هوبز، وأفلاطون يُصبح كانت، وثراسيماشوس نيتشه، وأرسطو سبنسر، وأبيقور ديدرو. في العصور القديمة وفي الحديثة - أيضًا - يفكِّك التفكير التحليليُّ الدين الذي يدعم الكود الأخلاقيَّ. تأتي أديان جديدة، لكنَّها تكون في عزلة عن الطبقة الحاكمة، ولا توَفِّر أيَّ خدمة للدولة. عصر من التشَكُّكات المُنهكة والغرق في الملَذَّات تلا انتصار العقلانيَّة على الأساطير في القرن الأخير قبل ظهور المسيحيَّة، ويحقَّق انتصارًا مُشابهًا اليوم في القرن الأول بعد المسيحيَّة.

في الفترة البينيَّة لكود أخلاقيٍّ والكود الذي يليه يولد جيل لا تحكمه قواعد ولا أصول له يسلِّم نفسه للمُتَع والرفاهيَّة والفساد وتفكيك الأسرة وتفكيك أيِّ أخلاق مُتبقِّية، جميعهم تقريبًا ما عدا بقيَّة صغيرة تتشَبَّث بكلِّ ما لديها بالطرق والقيود القديمة.

---

[١] زعيم الفكر السوفسطائيِّ في القرن الخامس قبل الميلاد.

[٢] كاتب وفيلسوف فرنسيٌّ عُرف بنقده الساخر، عاش خلال عصر التنوير.

[٣]فيلسوف يونانيٌّ. يُعتبر من أبرز ممَثِّلي المدرسة الكلبيَّة، التي تؤمن بحرِّيَّة الإنسان وأنَّها طريق الوصول إلى الحكمة.

[٤] كاتب وأديب وفيلسوف يشتهر بكتابه «نظريَّة العَقْد الاجتماعيِّ» الذي ينصُّ على حرِّيَّة الإنسان وعلى أنَّه يتخَلَّى عن هذه الحرِّيَّة في ظلِّ النظام السياسيِّ.

قليل من الأرواح يخالطها شعور أنَّه «من الجميل والنبيل أن يموت الشخص مُدافعًا عن بلده». يُمكن لفشل في القيادة أن يجعل الدولة تُضعف نفسها في مواجهة النزاعات الداخليَّة. في نهاية هذه العمليَّة قد تجلب هزيمة حاسمة في الحرب النفخة النهائيَّة أو غزو بربريٌّ خارجيٌّ يتَّحد مع البربريَّة التي تتصاعد في الداخل لتتلَقَّى الحضارة بذلك حتفها.

هل هذه صورة مُتشائمة؟ ليس بالضَّبط... الحياة لا تأتي بوعد مُتأصِّل فيها بالخلود، سواء كان للأفراد أو الدول. الموت طبيعيٌّ، وحينما يأتي في الوقت المُناسب يكون مُرَحَّبًا به ومُفيدًا، والعقل الناضج لن يشعر بأيِّ إهانة في قدومه. لكن... هل حقًّا تموت الحضارات؟ من جديد، ليس بالضبط... الحضارة اليونانيَّة لم تمُت حقًّا؛ إنَّما اندثر إطارها فحسب، واتَّسع وتغَيَّر موطنها؛ إنَّها تحيا في ذاكرة العِرْق، وتحيا بدرجة عالية من الوفرة التي لا تستطيع حياة واحدة مهما كانت طويلة ومُمْتلئة أن تستوعبها كلَّها. لقد قرأ لهوميروس الآن عدد من القراء أكثر من قرَّائه أثناء حياته وعلى أرضه. الشعراء اليونانيُّون في كلِّ مكتبة وجامعة، في هذه اللَّحظة يدرس كتابات أفلاطون مئات الآلاف من مُستكشفي «البهجة العزيزة» من فلسفة تنشر الحياة بأفكارها المُتفَهِّمة. هذه النجاة الانتقائيَّة للعقول المُبدعة أكثر جوانب اللاأخلاقيَّة رحمةً وواقعيَّةً.

تموت الأمم، المناطق القديمة تجدب وتُعاني من التغيير، الرجل المَرِن يختار أدواته وفنونه ويتخَطَّى المشاكل، آخذًا معه ذكرياته. إذا قام التعليم بتعميق وتوسعة هذه الذكريات تنتقل الحضارة بأسرها معه، وتبني في مكان ما بيتًا جديدًا. في الأرض الجديدة لا يحتاج إلى أن يبدأ من جديد بالكلِّيَّة، ولا أن يشُقَّ طريقه دون مُساعدة أصدقائه؛ وسائل التواصل والنقل تربطه وتغَذِّيه كغشاء رحم رقيق مُرتبط ببلده الأم. روما استوردت الحضارة اليونانيَّة وأرسلتها إلى أوروبا الغربيَّة، أمريكا استعانت بالحضارة الأوروبيَّة وتُحضِّر لنقل تجاربها بطرق للنقل لم تُجرَّب من قبل قط.

الحضارات أجيال من الروح العِرْقيَّة، كما تحاول الحياة أن تتخَطَّى الموت بالتكاثر، فإنَّ الثقافات الهرِمَة تسلِّم تراثها لورثتها عبر السنين والبحار. حتَّى في كتابة هذه السطور، التجارة والطباعة، والأسلاك والموجات والبكتيريا التي تطير في الهواء، كلُّها تجمع الشعوب والحضارات معًا، مُحافظين على كلِّ ما أسهم به كلٌّ منهم في التراث البشريِّ.

هل التقدُّم حقيقيٌّ؟[٧٢]

أمام هذه الصورة البانوراميَّة للأمم والأخلاق والأديان التي ترتفع وتسقط، تجد فكرة التقَدُّم نفسها في صورة مَشكوكٍ فيها. هل الأمر مُجرَّد التباهي العقيم والتقليديِّ لكلِّ جيل «حديث»؟ بما أنَّنا لم نقرَّ أيَّ تغيير جوهريٍّ في طبيعة الإنسان خلال العصور التاريخيَّة، فيجب علينا محو كلِّ التطوُّرات التكنولوجيَّة باعتبارها مجرَّد وسائل جديدة لتحقيق غايات قديمة: اقتناء السلع، وسعي أحد الجنسين وراء الجنس الآخر (أو جنسه نفسه)، والتغَلُّب على المنافسة، وخوض الحروب. إنَّ أحد الِاكتشافات المُحبِطة لقرننا المُخيِّب للآمال هو أنَّ العلم مُحايِد: سيقتل من أجلنا بقدر ما سيُعالج، وسيُدمِّر من أجلنا بسهولة أكبر ممَّا يُمكن أن يبني. كم يبدو الآن قاصرًا وغيرَ مُلائم شعار فرانسيس بيكون المُتباهي «المعرفة قوَّة»!

أحيانًا نشعر أنَّ العصور الوسطى وعصر النهضة، التي أكَّدت الميثولوجيا والفنِّ بدلًا من العلم والسلطة، ربَّما كانت أكثر حكمة منَّا، نحن الذين نزيد ونوسِّع وسائلنا باستمرار بدون أن نحسِّن غاياتنا.

لقدِ انطوى تقَدُّمنا في العلم والتقنيات على بعضٍ من صبغة الشرِّ مع الخير. سبُل الراحة والرفاهية لدينا قد تكون أضعفت قدرتنا البدنيَّة على التحَمُّل والتزامنا الأخلاقيِّ، لقد طوَّرنا وسائلنا للتنَقُّل والحركة بشكلٍ هائل، ولكن البعض منَّا يستخدم هذه الوسائل لتسهيل الجريمة، ولقتل إخواننا وأخواتنا، أو لقتلنا نحن! نحن نُضاعِف ونُضاعِف سرعتنا، ولكنَّنا نحَطِّم أعصابنا أثناء هذه العمليَّة، وما زلنا قِردَة ترتدي سراويل، وتتحَرَّك بسرعة ألفي ميل في الساعة، نفس القِردَة التي كنَّا عندما كنَّا نمشي على أرجلنا. إنَّنا نشيد بعلاجات وجراحات الطبِّ الحديث ما لم تؤدِّ إلى آثار جانبيَّة أسوأ من المرض، نُقدِّر جدِّيَّة أطبائنا في سباقهم المجنون مع قدرة الميكروبات على التكَيُّف واكتساب المناعة ومع قدرة المرض الإبداعيَّة، ومُمتَنُّون للسنوات الإضافيَّة التي يمنحنا إيَّاها علم الطبِّ ما لم تكن امتدادًا مُرهِقًا للمرض والعجز والكآبَة، لقد ضاعفنا قدرتنا مائة مرَّة على تعَلُّم وتقرير أحداث

اليوم والكوكب، ولكن في بعض الأحيان نحسد أسلافنا الذين لم يكن يُعكِّر صفوَ سلامهم إلَّا أنباء قريتهم! لقد حسَّنَّا على نحو جدير بالثناء الظروفَ المعيشيَّة للعمَّال المَهرَة والطبقة المتوَسِّطة، ولكنَّنا قد سمحنا لمُدننا أن تتقرَّح بالمعازل المُظلمة للأقلِّيَّات والأحياء العشوائيَّة المُوحِلَة.

نحن نحتفل ونلهو بتحَرُّرنا من الأساطير، ولكن... هل طوَّرنا خلُقًا فطريًّا - كودًا أخلاقيًّا مُستقلًّا عن الدين - قويًّا بما يكفي ليمنع غرائز حبِّ التمَلُّك وحبِّ القتال والجنس لدينا من أن تحطَّ من قدر حضارتنا لتتحَوَّل إلى مجَرَّد مُستنقع من الجشع والجريمة والمُجون؟ هل بالفعل تخَلَّصنا من التعَصُّب أم أنَّنا فقط حوَّلناه من عداوات دينيَّة إلى عداوات قوميَّة وأيديولوجيَّة وعرقيَّة؟ هل أخلاقنا أفضل من ذي قبل أم أسوأ؟ قال رحَّالة من القرن التاسع عشر: «الأخلاق تسوء بشكل مُنتظم كلَّما اتَّجهت من الشرق إلى الغرب؛ هي سيِّئة في آسيا، ليست جيِّدة في أوروبا، وسيِّئة تمامًا ولايات أمريكا الغربيَّة»[٧٣]. والشرق الآن يُقلِّد الغرب! هل وفَّرت قوانيننا للمُجرم حماية مُفرِطة من المجتمع والدولة؟ هل منحنا أنفسنا حرِّيَّة أكثر ممَّا يستطيع ذكاؤنا استيعابه؟ أم أنَّنا نقترب من ذلك الاضطراب الأخلاقيِّ والاجتماعيِّ الذي يركض فيه الوالدان

المذعوران عائدين إلى الكنيسة الأمِّ يتوسَّلون إليها أن تُهَذِّب أطفالهم مهما كانت التكاليف التي ستتحَمَّلها الحرِّيَّة الفكرِيَّة؟ هل كان كلُّ تقَدُّم الفلسفة منذ ديكارت خطأً من حيث فشله أن يدرك دور الأسطورة في تعزية الإنسان والسيطرة عليه؟ «من تزْدَدْ معرفته يزْدَدْ حزنُه، وفي الكثير من الحكمة الكثير من الحزن»[٧٤].

هل كان هناك أيُّ تقَدُّم في الفلسفة على الإطلاق منذ كونفوشيوس؟ أو في الأدب منذ أسخيلوس؟ هل نحن مُتأكِّدون أنَّ موسيقانا بأشكالها المُعقَّدة والأوركسترات القويَّة أعمق من موسيقى بالسترينا، أو أكثر موسيقيَّة وإلهامًا من الألحان المونوديَّة التي غنَّاها عرب العصور الوسطى مع عزف آلاتهم البسيطة؟ (قال إدوارد لين عن الموسيقيِّين في القاهرة: «لقد فُتِنت بأغانيهم أكثر من أيِّ موسيقى أخرى سبق لي أنِ استمتعت بها في أيِّ وقت مضى»[٧٥]). كيف لمعمارنا المعاصر – بقدر ما هو جريء وأصليٌّ ومُثير للإعجاب – أن يُقارَن بمعابد مصر أو اليونان القديمة، أو بمنحوتاتنا التي تضمُّ تماثيل خوفو وهيرميس، أو بمنحوتاتنا الغائرة التي منها تماثيل برسيبوليس وبارثينون، أو بلوحاتنا بما فيها من لوحات فان إيك أو هولباين؟ إذا كان «إحلال النظام محلَّ الفوضى هو جوهر

الفنِّ والحضارة»[٧٦]. فهل الرسم المُعاصر في أمريكا وأوروبا الغربيَّة هو إحلال الفوضى محلَّ النظام، ورمزٌ حيٌّ واضح لانتكاسة حضارتنا إلى اضمحلال تائه وفوضويٍّ؟ إنَّ التاريخ مليء إلى حدٍّ لا مُبالٍ فيه، بحيث يُمكن تقديم حجَّة منه لكلِّ استنتاج تقريبًا عن طريق مجموعة مُختارة من الأمثلة. باختيارنا لأدِلَّتنا بتحيُّز برَّاق قد نُنشئ بعض الأفكار الأكثر راحة. ولكن ربَّما يجب علينا أوَّلًا أن نحَدِّد ما الذي يعنيه التقَدُّم بالنسبة لنا؟ إن كان يعني ازدياد السعادة فقضيَّته خاسرة تقريبًا من أوَّل نظرة! إنَّ قدرتنا على القلق لا نهائيَّة، ومهما كان عدد الصِّعاب التي تغَلَّبنا عليها، وعدد المُثُل العليا التي حقَّقناها، سوف نجد دومًا مُبرِّرًا لكوننا بؤساء للغاية؛ هناك مُتعة خفيَّة في رفض البشريَّة أو العالم باعتبارهم غير جديرين باستحساننا. يبدو الأمر سخيفًا أن نُعرِّف التقَدُّم بعباراتٍ تجعل الطفل العاديَّ نتاجًا أعلى وأكثر تقَدُّمًا من الشخص البالغ أو الحكيم؛ لأنَّ الطفل بالتأكيد هو أسعد من في الثلاثة! هل من المُمْكن وجود تعريف أكثر موضوعيَّة؟ يجب علينا هنا أن نعرِّف التقَدُّم بأنَّه السيطرة المتزايدة للحياة على البيئة. إنَّه اختبار يُمكن أن يُعقَد لأقلِّ الكائنات الحيَّة تطوُّرًا وللإنسان أيضًا.

يجب علينا ألَّا نُطالب التقَدُّم أن يكون مُستمِرًّا وشاملًا. بالطبع توجد تراجعات، كما توجد فترات من الفشل والوهن والاستراحة لدى الفرد النامي؛ إذا كانت المرحلة الحاليَّة تشكِّل تقَدُّما في السيطرة على البيئة، فإنَّ التقَدُّم حقيقيٌّ. يمكننا افتراض أنَّه تقريبًا في أيِّ وقت مضى من التاريخ بعض الأمم كانت تتقَدَّم وأخرى كانت آخذة في التدهور، كما تتقَدَّم روسيا وتضعف إنجلترا اليوم. قد تُحرِز الأمَّة نفسها تقَدُّمًا في أحد ميادين النشاط البشريِّ وتتراجع في ميدان آخر، كما تتقَدَّم أمريكا الآن في التكنولوجيا وتتراجع في فنون الرسوم التصويريَّة. إذا كنَّا نجد أنَّ نوع العبقريَّة السائد في الدول الشابَّة مثل أمريكا وأستراليا يميل إلى الأنواع العمليَّة والمُبتكرة والعلميَّة، والتنفيذيَّة بدلًا من راسم اللَّوحات أو القصائد، نحَّات التماثيل أو الكلمات، فإنَّه يجب علينا أن نفهم أنَّ كلَّ عصر ومكان يحتاج ويستقي بعض أنواع القدرة بدلًا من غيرها في سعيه لتحقيق السيطرة على البيئة. إنَّه لا يجدر بنا أن نقارن عمل أحد البلدان في أحد العصور بأفضل ما غُربِل واختير ممَّا جُمع من الماضي. مُشكلتنا هي ما إذا كان الإنسان العاديُّ المتوَسِّط قد زوَّد قدرته على التحَكُّم في ظروف وأوضاع حياته.

إذا ألقينا نظرة بعيدة الأمد وقارنَّا بين وجودنا المعاصر، بقدر ما هو غير مُستقِرٍّ وفوضويٌّ وسفَّاح، وجهل وخرافة وعنف وأمراض الشعوب البدائيَّة، فإنَّنا لن نخرج من هذه المقارنة بائسين. قد لا تزال أدنى الطبقات في الدول المُتحَضِّرة لا تختلف عن البرابرة سوى قليلًا، ولكن فوق تلك المستويات آلاف بل ملايين بلغوا مستويات ذهنيَّة ومَعنويَّة قلَّما توجد وسط رجالٍ بدائيِّين. في ظلِّ الضغوط المُعقَّدة لحياة المدينة نلجأ في خيالاتنا أحيانًا إلى البساطة التي نفترضها لطرق ما قبل الحضارة؛ ولكن في لحظاتنا الأقلِّ رومانسيَّة نعلم أنَّ هذا ردٌّ فعل هروبيٌّ من مهامِّنا الفعليَّة، وأنَّ تعظيم الهَمَج، كما هي معظم الحالات المزاجيَّة الأخرى للشباب، تعبير نافذ الصبر عن عدم قدرة المُراهق على التأقلُم، وعن قدرة على الوعي لم تنضج بعد وتوضع في مكانها الصحيح بشكل مريح. «الهمجيُّ اللَّطيف والإنسيابيُّ» سيكون مُبهجًا جدًّا، لكن لسكِّينه وحشراته وقذره. توَضِّح الدراسات على القبائل البدائيَّة الناجية ارتفاع مُعدَّلات الوفاة بين الأطفال وقصر فترة حياتهم، وأنَّهم يمتلكون قدرة أقلَّ على الاحتمال، وأبطأ وأكثر عُرضة للمرض[٧٧]. لوِ اتَّخذنا طول الأعمار مؤشِّرًا لزيادة القدرة على التحَكُّم في البيئة، فإنَّ جداول الوفيات تشير إلى تقدُّم الإنسان؛

لأنَّ أطوال أعمار الأوروبِّيِّين والأمريكان البيض وصلت الآن ثلاثة أضعاف ما كانت عليه خلال القرون الثلاثة الماضية. من مدَّة مضت ناقش مؤتمر للحانوتيِّين المخاطر التي تهَدِّد مهنتهم بسبب تأخُّر الناس في الوفاء بمواعيدهم مع الموت[٧٨]. لكن لو أنَّ الحانوتيَّة مُسْتاؤون، فالتقَدُّم فعلًا حقيقيٌّ.

ليس من الواضح أنَّ القدماء يظفرون بالجائزة في المناظرة بين القديم والحديث. هل يجب علينا أن نضع في الحسبان أنَّه تمَّ القضاء على المجاعات في الدول الحديثة، وأنَّ واحدة من الدول الحديثة تستطيع وحدها أن تُنتج طعامًا كافيًا ليطعمها فوق حاجتها ثمَّ يفيض حتَّى ترسل مئات الملايين من أطنان القمح إلى دولة أخرى مُحتاجة؟ هل نحن مُستعِدُّون أن نستغنيَ عن العلم الذي دحض الكثير من الخرافات والغموض والتعَصُّب الدينيِّ، أو عن التكنولوجيا التي نشرت الطعام وملكيَّة المنازل والراحة والتعليم والرفاهيَّة أكثر من أيِّ وقت مضى؟ هل سنُفَضِّل حقًّا الأجورا[١] الأثينيَّة أو المجالس الرومانيَّة[٢] على البرلمان الإنجليزيِّ أو الكونجرس الأمريكيِّ

[١] أجورا (Agora): هي ساحة دائريَّة كان المُزارعون والفلاسفة بأثينا يلتقون بها منذ عام ٤٠٦ ق.م.، شكَّلت مركزًا إداريًّا ودينيًّا وتجاريًّا في الدولة، فقد كانت المكان العموميَّ الذي تُتَّخذ فيه القرارات الأساسيَّة في المجتمع اليونانيِّ.

[٢] المجالس أو الكوميتيا الرومانيَّة (Roman comitia): هي مؤسَّسات تشريعيَّة كانت قائمةً في روما القديمة، وكانت تعمل كالمصدر الرئيس للتشريعات في روما.

أو نرضى بالشريحة الضيِّقة المسموح لها بالتصويت في أتيكا أو اختيار الحاكم من قِبَل الحرس الإمبراطوريِّ كما كان في روما؟ هل سنفَضِّل أن نعيش تحت قانون أثينا أو الإمبراطوريَّة الرومانيَّة على الدستور الأمريكيِّ الذي يمنع عقاب المتَّهم دون المُثول أمام المحكمة، ويضمن له حكمًا من هيئة المحلَّفين، ويضمن لنا حرِّيَّة الاعتقاد والفكر، ويضمن حرِّيَّة المرأة؟ هل أخلاقيَّاتنا – حتى مع تهَلهُلهَا – أسوأ من أخلاق أهل السيبياديس المُخنَّثين، أم هل قام أيُّ رئيس أمريكيٍّ بما قام به بريكليس الذي عاش مع مُومِس مُتعلِّمة؟ هل نشعر بالعار من جامعاتنا العظيمة أو دور نشرنا أو مكتباتنا العامَّة العامرة؟ لقد كان هناك كتَّاب دراميُّون عظماء في أثينا، لكن هل كان أيُّهم أعظم من شيكسبير أو كان أريستوفانيس[١] يُضاهي موليير[٢] في عمقه وإنسانيَّته؟ هل كانت خطابة ديموستيني وإيسقراط وإيسخينيس[٣] أقوى من تلك التي امتلكها تشاتام

---

[١] أرسطوفانيس (Aristophanes): مؤلِّف مسرحيٌّ كوميديٌّ يُعتبر من روَّاد المسرح الساخِر في اليونان القديمة.

[٢] مُولْيير (Molière): مؤلِّف كوميديٌّ مسرحيٌّ، وشاعر فرنسيٌّ، ويُعدُّ أحد أهمِّ أساتذة الكوميديا في تاريخ الفنِّ المسرحيِّ الأوروبِّيِّ ومُؤسِّس «الكوميديا الراقية».

[٣] ثلاثة من أرفع عشر مُتحدِّثين آثينيِّين (Attic Orators) في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد.

وبيرك وشيريدان؟[١] أم هل يُمكننا أن نضع جيبون[٢] تحت هيرودوت[٣] أو ثوسيديديس؟[٤] هل يوجد أيُّ شيء في النثر الفنِّيِّ القديم يُضاهي في مداه وعمقه أيَّ رواية حديثة؟ يُمكننا أن نعترف بتفَوُّق الفنون القديمة على الرغم من أنَّ بعضنا سيفَضِّل كنيسة نوتر دام على البارثينون. إذا كان بمقدور الآباء المؤسِّسين العودة إلى أمريكا، أو كان بمقدور فوكس وبنثام العودة إلى إنجلترا، أو فولتير وديديروت العودة إلى فرنسا، هل سيوبِّخوننا لعُقوقنا وعدم تقديرنا مدى حسن حظِّنا أنَّنا نعيش اليوم لا الأمس وليس حتى تحت حكم بريكليس أو أغسطس؟

ينبغي ألَّا نشعر بالِانزعاج الشديد لاحتماليَّة موت حضارتنا كأيِّ حضارة أخرى! وكما سأل فريدريك القوَّات المنسحبة

---

[١] رجال دولة بريطانيِّون، كان لخطاباتهم تأثير واسع في البرلمان والحكومة البريطانيَّة في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديِّ.

[٢] إدوارد جيبون (Edward Gibbon): (١٧٣٧ – ١٧٩٤) مؤرِّخ إنجليزيٌّ، صاحب كتاب «اضمحلال الإمبراطوريَّة الرومانيَّة وسقوطها» الذي يُعدُّ من أهمِّ وأعظم المراجع في موضوعه.

[٣] هيرودوت (Herodotus): (٤٨٤ ق.م. – ٤٢٥ ق.م.) مؤرِّخ يونانيٌّ آسيويٌّ، اشتهر بالأوصاف التي كتبها لأماكن عدَّة زارها حول العالم المعروف آنذاك، وأناس قابلهم في رحلاته وكتبه العديدة عن السيطرة الفارسيَّة على اليونان.

[٤] ثوسيديديس (Thucydides): (٤٦٠ ق.م. – ٣٩٥ ق.م.) مؤرِّخ إغريقيٌّ شهير، صاحب كتاب «تاريخ الحرب البيلوبونيسيَّة»، ويُعَدُّ أوَّل المؤرِّخين الإغريق الذين أعطوا للعوامل الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة أهمِّيَّة خاصَّة.

في كولين: «هل ستعيشون إلى الأبد؟»[٧٩] ربَّما يكون من المُستحسَن أن تأخذ الحياة أشكالًا جديدة، وأن يكون للحضارات والمراكز الجديدة دورها. وبينما تحاول جهود الغرب أن تواجه تحَدِّي الشرق الصاعد، ربَّما تعطي الغرب نفسه دفعة جديدة.

لقد أقررنا أنَّ الحضارات العظيمة لا تموت كلِّيَّةً: non omnis moritur، أو لا يموت كلُّ الناس لأنفسهم. قد صمدت بعض الإنجازات القيِّمة في كلِّ تقلُّبات صعود وهبوط الأمم: القدرة على إشعال النار والإنارة، وصناعة العجلات وبعض الأدوات البدائيَّة الأخرى، واللُّغة والكتابة والفنُّ والغناء، الزراعة والعائلة والعناية الأبويَّة، التنظيم الاجتماعيُّ والأخلاق والخيريَّة، واستخدام التعليم لنقل تقاليد العائلة والعِرْق. كلُّ هذه عناصر من الحضارة، وكلُّها تمَّ الحفاظ عليها بقوَّة خلال الطريق المَحفوف بالمخاطر مرورًا من حضارة إلى أخرى. هذه العناصر هي النسيج الرابط للتاريخ الإنسانيِّ.

لو أنَّ التعليم هو نقل الحضارة، فنحن بلا شكٍّ نُحدِث تقدُّمًا. الحضارة لا توَرَّث، لكنَّها يجب أن تُتعَلَّم وتُكتَسب في كلِّ جيل من جديد، لوِ انقطع النقل الحضاريُّ لقرن واحد ستموت الحضارة، وسنرجع من جديد إلى الهمجيَّة. لذلك

فإنَّ أفضل إنجازاتنا المُعاصرة هي توَسُّع الثروة والعناء اللَّذَيْن لم يسبق لهما مَثيل، واللَّذَيْن يُبذلان من أجل إتاحة التعليم العالي. في يوم من الأيام كانت الجامعات ترَفًا مصمَّمًا للنصف الذكور من الطبقة المُترَفة! هذه الأيَّام عدد الجامعات كبير جدًّا لدرجة أنَّ القادرين على التكملة بنجاح يُمكن أن يحملوا دكتوراه. يُمكن أن نكون لم نتخطَّ عبقريَّة الأزمنة الماضية، لكنَّنا رفعنا مستوى متوسِّط التعليم أكثر من أيِّ وقت مضى في التاريخ.

لن يشكو إلَّا الأطفال أنَّ معلِّمينا لم يستأصلوا أخطاء وخرافات عشرات الآلاف من السنين! لقد بدأت التجربة العظيمة للتوِّ، ويُمكن حتَّى أن تنتكس بسبب ارتفاع نسبة مواليد غير الراغبين في استمرارها أو غير المتعلِّمين. لكن ما الثمرة الكاملة لتلقين هذه التعليمات إذا تعلم كلُّ طفل حتَّى العشرينات من عمره واستطاع الحصول على فرصة في التعليم الجامعيِّ والوصول للمكتبات والمتاحف التي تأوي وتوفِّر الكنوز الفكريَّة والفنِّيَّة للجنس البشريِّ؟ لا يجب أن نفكِّر في التعليم على أنَّه التراكم المؤلم للحقائق والتواريخ وفترات الحكم، ومجرَّد التدريب المناسب للأفراد لاكتساب نصيبهم في العالم فحسب، ولكن على أنَّه عمليَّة نقل الإرث الذهنيِّ

والأخلاقيِّ والتقنيِّ والجماليِّ على أكمل صورة مُمْكنة لأكبر عدد مُمْكن لزيادة فهم الإنسان للحياة وسيطرته عليها، وقدرته على تزيينها والاستمتاع بها.

إنَّ التراث الذي يُمكننا نقله كاملًا الآن أغنى من أيِّ وقت مضى، إنَّه أغنى من تراث بريكليس لاحتوائه كلَّ تطوُّرات اليونان من بعده، وأغنى من تراث ليوناردو لاحتوائه أعماله وكلَّ أعمال عصر النهضة الإيطاليِّ، وأغنى من تراث فولتير لاحتوائه على كلِّ أعمال التنوير الفرنسيِّ وكلِّ منشوراتها العالميَّة. لو أنَّ التقَدُّم حقيقيٌّ بالرغم من تذَمُّرنا ونحيبنا، فإنَّ ذلك ليس لأنَّنا نولد أصحَّ أو أفضل أو أكثر حكمة من الذين وُلدوا بالماضي، لكن لأنَّنا مولودون لتراث أغنى، مولودون على قاعدة وجوديَّة أرفع بسبب تراكم العلوم والفنون.

يزداد التراث، ويرتفع الإنسان بمقدار ما يتلَقَّاه منه.

التاريخ – أكثر من أيِّ شيء آخر – هو تكوين وتسجيل هذا التراث، والتقَدُّم هو تزايد وفرته وحفظه ونقله واستخدامه. لهؤلاء منَّا الذين لا يدرسون التاريخ كمُنذر ومذَكِّر بجرائم الإنسان وحماقاته فحسب، ولكن – أيضًا – كتذكير مُشجِّع للأرواح الخلَّاقة، لا يعود الماضي غرفة مُحبطة من الأهوال؛

إنَّما يُصبح مدينة سماويَّة، دولة فسيحة للعقل، ما زال يعيش ويتحَدَّث ويتغَنَّى بها الرهبان، ورجال الدولة، والمُخترعون، والعلماء، والشعراء، والفنَّانون، والموسيقيُّون، والمُحِبُّون، والفلاسفة. لن يتفَجَّع المؤرِّخ لعدم قدرتنا على إيجاد أيِّ معنًى في الوجود الإنسانيِّ إلَّا الذي نضعه نحن، ليكن هذا شيئًا نفخر به، أنَّنا نضع بأنفسنا معنًى لحياتنا، وأنَّ هذا المعنى يتخَطَّى حدود الموت في بعض الأحيان. لو أنَّ رجلًا محظوظًا كفاية، فإنَّه سيتمَكَّن من تحصيل أكبر قدر من تراث حضارته قبل موته وينقله لأولاده. ولآخر نفس في عمره سيظلُّ دائمًا ممتَنًّا لهذه التركة التي لا تنضب، مُستحضِرًا أنَّها أمُّنا المُغذِّية وحياتنا المُمْتدَّة.

هوامش

CHAPTER I

1. Sédillot, René, *L'Histoire n'a pas de sens.*
2. Durant, *Our Oriental Heritage*, 12.
3. *Age of Faith*, 979.
4. Sédillot, 167.
5. *The Reformation*, viii.
6. *The Age of Reason Begins*, 267.

CHAPTER II

7. Pascal, *Pensées*, No. 347.
8. Plato, *Phaedo*, No. 109.

CHAPTER III

9. *Caesar and Christ*, 193, 223, 666.

CHAPTER IV

10. Gobineau, *Inequality of Human Races*, xv, 210.
11. *Ibid.*, 211.
12. *Ibid.*, 36–7.
13. In Todd, A. J., *Theories of Social Progress*, 276.
14. See *Our Oriental Heritage*, 934–38.

CHAPTER VI

15. *Caesar and Christ*, 211.
16. *The Renaissance*, 576.
17. *Our Oriental Heritage*, 275.
18. *The Reformation*, 761.
19. *The Age of Reason Begins*, 394.
20. *The Age of Voltaire*, 64.
21. *Our Oriental Heritage*, 265.
22. *The Reformation*, 763.
23. *The Age of Voltaire*, 487.
24. Gibbon, Edward, *Decline and Fall of the Roman Empire*, I, 314.

CHAPTER VII

25. *Caesar and Christ*, 296–97.
26. *The Age of Faith*, 525–26.
27. Plato, *Laws*, No. 948.
28. *Our Oriental Heritage*, 205–13.
29. *Ibid.*, 416–19, 434, 504.
30. Renan, *The Apostles*, xxxiii.
31. Lemaître, *Jean Jacques Rousseau*, 9.
32. Durant, *The Mansions of Philosophy*, 568.

CHAPTER VIII

33. *The Reformation*, 752.
34. *The Age of Louis XIV*, 720.
35. Plutarch, *Life of Solon.*
36. *The Life of Greece*, 112–18.
37. Plutarch, *Tiberius Gracchus.*
38. *Caesar and Christ*, 111–22, 142–44, 180–208.

CHAPTER IX

39. *Encyclopaedia Britannica*, II, 962b.
40. *Our Oriental Heritage*, 231. We have revised the date there given for Hammurabi.
41. *The Life of Greece*, 587–92.
42. Paul-Louis, *Ancient Rome at Work*, 283–85.
43. *Caesar and Christ*, 641f.
44. Szuma Ch'ien in Granet, Marcel, *Chinese Civilization*, 113.
45. *Ibid.*
46. *Our Oriental Heritage*, 700f. The dates there given are being revised for a new edition.
47. Gowen and Hall, *Outline History of China*, 142.
48. In Carter, Thomas, *The Invention of Printing in China and Its Spread Westward*, 183.
49. *Our Oriental Heritage*, 724–26.
50. *The Age of Reason Begins*, 249–51.
51. Kautsky, Karl, *Communism in Central Europe in the Time of the Reformation*, 121, 130.
52. *The Reformation*, 383, 391, 398–401.

CHAPTER X

53. Renan, *Marc Aurèle*, 479.
54. Gibbon, *Decline and Fall*, I, 31.
55. Gomme, A. W., *The Population of Athens in the Fifth and Fourth Centuries B.C.*, 21, 26, 47; *Life of Greece*, 254.
56. Thucydides, *Peloponnesian War*, iii 10; *Life of Greece*, 284.
57. Plato, *The Republic*, Nos. 560–64.
58. *Ibid.*, No. 422.
59. Aristotle, *Politics*, No. 1310.
60. Isocrates, *Works*, "Archidamus," No. 67.
61. This paragraph has been copied from *The Life of Greece*, 464–66.
62. *Caesar and Christ*, 128–30.
63. *Ibid.*

CHAPTER XI

64. *Our Oriental Heritage*, 446.
65. *Caesar and Christ*, 218.
66. In Seebohm, *The Age of Johnson*, xiii.

CHAPTER XII

67. *Our Oriental Heritage*, 1.
68. See *The Mansions of Philosophy*, 355; Toynbee, *A Study of History*, IV, 27f.
69. Quoted from Bazard's *Exposition de la doctrine Saint-Simonienne*, in Toynbee, I, 199.
70. Spengler, *Decline of the West*, I, 353, 90, 38.
71. This is the initial theory of Toynbee's *Study of History*, I, 271f.

CHAPTER XIII

72. This section appropriates some passages from an essay on the same subject in *The Mansions of Philosophy*.
73. Anon. in Bagehot, *Physics and Politics*, 110.
74. Ecclesiastes, i, 18.

75. Lane, Edward, *Manners and Customs of the Modern Egyptians*, II, 66.
76. *Our Oriental Heritage*, 237.
77. Todd, *Theories of Social Progress*, 135.
78. Siegfried, André, *America Comes of Age*, 176.
79. *Rousseau and Revolution*, Ch. II, Sec. iii, William Coxe, *History of the House of Austria*, III, 379.

كتُب ورَد ذكرُها بالهوامِش

ARISTOTLE, *Politics*. Everyman's Library.
BAGEHOT, WALTER, *Physics and Politics*. Boston, 1956.
CARTER, THOMAS F., *The Invention of Printing in China and Its Spread Westward*. New York, 1925.
COXE, WILLIAM, *History of the House of Austria*, 3v. London, 1847.
DURANT, WILL, *The Mansions of Philosophy*. New York, 1929.
DURANT, WILL and ARIEL, *The Story of Civilization*:

I. *Our Oriental Heritage*. New York, 1935.
II. *The Life of Greece*. New York, 1939.
III. *Caesar and Christ*. New York, 1944.
IV. *The Age of Faith*. New York, 1950.
V. *The Renaissance*. New York, 1953.
VI. *The Reformation*. New York, 1957.
VII. *The Age of Reason Begins*. New York, 1961.
VIII. *The Age of Louis XIV*. New York, 1963.
IX. *The Age of Voltaire*. New York, 1965.
X. *Rousseau and Revolution*. New York, 1967.

Encyclopaedia Britannica, 1966 edition.
GIBBON, EDWARD, *The Decline and Fall of the Roman Empire*, ed. Milman, 6v. New York: Nottingham Society, n.d.
GOBINEAU, J. A. DE, *The Inequality of Human Races*. London, 1915.
GOMME, A. W., *The Population of Athens in the Fifth and Fourth Centuries B.C.* Oxford, 1933.
GOWEN, H. H., AND HALL, JOSEF, *Outline History of China*. New York, 1927.
GRANET, MARCEL, *Chinese Civilization*. New York, 1930.
ISOCRATES, *Works*. Loeb Library.
KAUTSKY, KARL, *Communism in Central Europe in the Time of the Reformation*. London, 1897.
LANE, EDWARD, *Manners and Customs of the Modern Egyptians*, 2v. London, 1846.
LEMAÎTRE, JULES, *Jean Jacques Rousseau*. New York, 1907.
PASCAL, BLAISE, *Pensées*. Everyman's Library.
PAUL-LOUIS, *Ancient Rome at Work*. London, 1927.
PLATO, *Dialogues*, tr. Jowett, 4v. New York: Jefferson Press, n.d.
PLUTARCH, *Lives*, 3v. Everyman's Library.
RENAN, ERNEST, *The Apostles*. London: Methuen, n.d.
———, *Marc Aurèle*. Paris: Calman-Lévy, n.d.

Sédillot, René, *L'Histoire n'a pas de sens*. Paris, 1965.
Seebohm, Frederick, *The Age of Johnson*. London, 1899.
Siegfried, André, *America Comes of Age*. New York, 1927.
Spengler, Oswald, *The Decline of the West*, 2v. New York, 1927.
Thucydides, *History of the Peloponnesian War*. Everyman's Library.
Todd, A. J., *Theories of Social Progress*. New York, 1934.
Toynbee, Arnold J., *A Study of History*, 10v. London, 1934f.